رسائل التعزية بالأبناء في الأندلس

(المحتوى والفن)

إعداد

أ.د / محمد عبد العزيز عبد العزيز عبد الحميد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنصورة

١٤٤١هـ = ٢٠٢٠م

ض

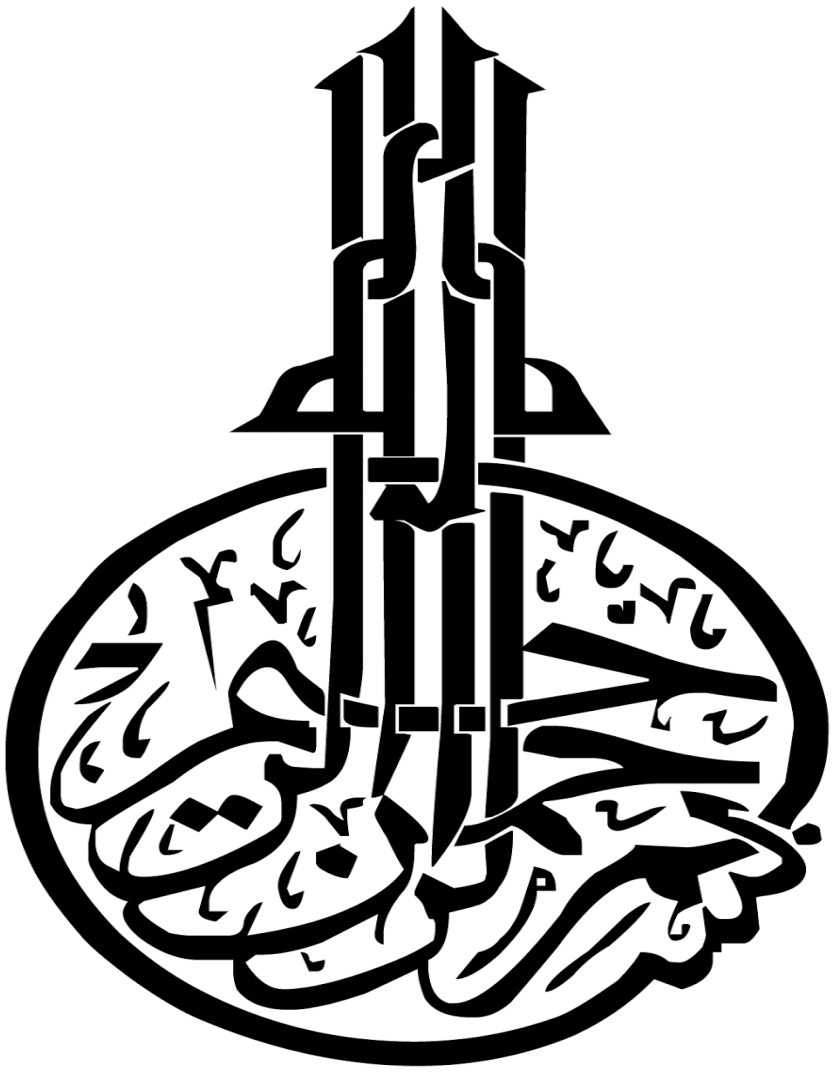

رسائل التعزية بالأبناء في الأندلس (المحتوى والفن)

محمد عبد العزيز عبد العزيز عبد الحميد

قسم الأدب والنقد كلية اللغة العربية بالمنصورة جامعة الأزهر

الايميل الإلكتروني:

Moohammedabdelaziz.32@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

مقدمة: التعزية من الموضوعات المهمة التي الرسالة الفنية في الأندلس، فهي تعبر عن آلام النفس، وإحساس الكاتب الصادق نحو أخيه، خاصة إذا كانت في الأبناء، فالجرح أشد وآكد، ويهدف الكاتب من ورائها التسلية والتخفيف علىٰ المعزَّىٰ.

يهدف البحث إلىٰ الكشف عن محتوىٰ رسالة التعزية وقيمتها الفنية، وبيان ما تنطوي عليه نفوس الكتاب، وما تحويه صدورهم تجاه المتوفَّىٰ، وصاحب المُصاب(المعزَّىٰ)، وقد اتبعت في دراسة هذا الموضوع المنهج الفني الذي يتأمل النصوص ويحللها تحليلا فنيا يكشف عن قيمتها، وقد توصل البحث إلىٰ أن التعزية بالأبناء من أهم أنماط التعزية، وأصدقها عاطفة، وأعمقها تجربة، وأن البناء النفسي والفكري لرسالة التعزية يدور حول عناصر معينة لا يكاد يخرج عنها؛ الهدف منها تسلية المصاب، والتسكين من لوعته وفزعته، وهي: التأمل في الموت والحياة، وذم الدنيا والتنفير منها، والتذكير بالآخرة، والتحذير من الجزع، والتأسي بالرسول الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- في مثل هذا الموقف، والدعوة إلىٰ الصبر والتسليم، والرضا بقضاء الله تعالىٰ، وإظهار الكاتب التفجع والحزن علىٰ المتوفَّىٰ، والإشادة بجليل أوصافه، وجميل

خصاله، والدعاء بما يناسب المقام، ويتواءم مع الموقف، تهوينا من شأن الرزء، وتسلية لصاحب المصيبة وتخفيفا عنه، وكان من سمات رسالة التعزية التنوع في البدء والختام؛ إذ لم يلتزم الكتاب ببداية معينة أو خاتمة بعينها، وإنما نوعوا في البدء والختام، بما يعكس اختلاف الرؤىٰ، وتعدد الأذواق، وغلبت علىٰ هذه الرسائل العاطفة الصادقة، والمشاعر الجياشة، فجاءت التجربة معبرة عن شعور الكاتب وأحاسيسه، بدا ذلك جليا في كل أجزاء الرسالة حتىٰ نهايتها، حيث نجد فوران الفؤاد، وحرارة الانفعال بالموقف، وقوة الشعور، والإحساس بمرارة فقد الأبناء وأثر ذلك علىٰ النفس تنطق به أجزاء الرسالة، وقد اتسمت هذه الرسائل بميزات وسمات ميزتها من غيرها، منها: بروز الاتجاه الوعظي الذي يتجلىٰ في ذم الدنيا والتحذير منها، والاستعداد للموت، والدعوة إلىٰ الصبر والتسليم، ونبذ الجزع، والتأسي برسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- في مثل هذا الموقف، كما برزت نزعة الحزن التي تلف الرسالة من أولها إلىٰ آخرها، وتهيمن علىٰ أفكار الكاتب ومعانيه، وتغلف أسلوبه وصوره، كما بدت نزعة التأمل واضحة جلية في الحديث عن حقيقة الموت والحياة، ويوصي البحث بالتأمل في التراث الأندلسي شعرا ونثرا، فهو جدير بالبحث والدراسة خاصة النثر، والذي لا زالت درره ولآلئه تفتقر إلىٰ الغواص الماهر الذي يستخرجها، ويقف علىٰ قيمتها الأدبية والفنية.

الكلمات المفتاحية: التعزية، الرسائل، رثاء الأبناء، النثر العربي، الأدب الأندلسي.

Condolences to the children in Andalusia (Content and art)

Mohamed Abdel Aziz Abdel Aziz Abdel Hamid
Department : Literature and criticism , Faculty of Arabic Language in Mansoura , Al Azhar university
University
Email : Moohammedabdelaziz.32@azhar.edu.eg

Summary:

Introduction: Consolation is one of the important topics that the artistic message has penetrated in Andalusia. It expresses the pain of the soul and the sincere sense of the writer towards his brother, especially if it is in the children. The wound is more severe and certain.

The research aims to reveal the content of the message of condolence and its artistic value, and to clarify what is included in the souls of the book, and what they contain in their chest towards the deceased, and the owner of the affliction (the comforter). Searching that condolence to children is one of the most important types of condolence, the most sincere and emotional, and deepest experience, and that the psychological and intellectual construction of the message of condolence revolves around certain elements that are hardly out of it; These are: contemplation of death and life, vilification of the world and alienation from it, remembrance of the Hereafter, warning of alarm, consolation with the Holy Messenger - may God bless him and grant him peace - in such a situation, the call for patience and extradition, contentment with the judgment of God Almighty, and showing the writer the heartache and sadness of the deceased, Praising his great descriptions, beautiful qualities, and supplication in a way that suits the maqam, and adapts to the situation, downplaying the matter of pleasure, and entertaining the owner of calamity and

relieving him. One of the characteristics of the message of condolence was diversity in the beginning and closing, as the book did not adhere to a specific beginning or conclusion, but rather they were Starting and closing, to reflect different visions, and understanding Extend your tastes. These messages overcame sincere passion and overwhelming emotions, so the experience came to express the writer's feeling and feelings, which was evident in all parts of the message until the end of it, where we find the heartbreak, the heat of emotion with the position, the power of feeling, the feeling of bitterness, the loss of children, and the effect of this on the soul that it pronounces The parts of the message, and these messages have been characterized by features and features that distinguish them from others, including: the emergence of the preaching trend that manifests itself in denouncing the world and warning against it, preparing for death, calling for patience and surrender, rejecting alarm, and mourning the Messenger of God - may God bless him and grant him peace - in such a situation , Also, the tendency of grief emerged, which wraps the message from its beginning to the end, and dominates the writer's ideas and meanings, and encapsulates his style and images, as the tendency of contemplation became clear in talking about the truth of death and life, and the research recommends contemplating Andalusian heritage poetry and prose, it is worthy of research and study, especially prose And whose pearls and pearls still lack the skilled diver who extracts them, and it stands for their literary and artistic value.

Keywords: condolence, letters, sons in prose, Arabic prose, Andalusian literature.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد – صلىٰ الله عليه وسلم– وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعـد

فالتعزية من الموضوعات المهمة التي ولجتها الرسالة الفنية في الأندلس، وبدت واضحة جلية في النثر الأندلسي، وترجع قيمة هذه الرسائل إلىٰ أنها تزخر بالمعاني السامية، والعواطف الصادقة، وتعبر عن آلام النفس البشرية، وإحساس الكاتب الصادق نحو أخيه، وتكشف عن حقيقة الموت والحياة وأثرهما في النفس البشرية، وتشتمل علىٰ الحكمة والموعظة الحسنة، والدعوة إلىٰ الصبر والتسليم لأمر الله– تعالىٰ– وقدره، خاصة إذا كانت في الأبناء، فالجرح أشد، والرزء آكد، والمصيبة أدهىٰ وأمر، ويهدف الكاتب من ورائها التسلية والتخفيف علىٰ المعزّىٰ، ورأب الصدع، ولملمة الجراح، ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا.

وهذه الرسائل مع وفرتها، وقيمتها الأدبية، وجودتها الفنية، لم أجد من تعرض لها بالبحث والدرس، عدا بعض الدراسات التي تناولت الرسالة الأندلسية عامة، وعالجت التعزية ضمن موضوعاتها، ومنها: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري للدكتور فايز عبد النبي القيسي، والنثر الفني الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله للدكتور علي بن محمد، والنثر الفني في عصر الطوائف والمرابطين للدكتور حازم عبد الله خضر، وغيرها، ودراسة واحدة خاصة بالتعزية، وهي رسائل التعزية في العصر العباسي دراسة تحليلية للدكتور جمال نصر درويش، وكما هو واضح فهي تُعنىٰ برسائل التعزية في العصر العباسي.

وقد دفعني إلىٰ اختيار هذا الموضوع: انحناء هذه الرسائل علىٰ كثير من القيم الجمالية والفنية التي تغري الدارس باستجلائها، والتحاور مع أبعادها، والتطلع في أهدافها، وجلال الموضوع الذي تتحدث فيه. والكشف عن مدىٰ صدق الكُتَّاب في تجربتهم. وبروز رسالة التعزية بروزا واضحا في النثر الأندلسي.

وقد جاء البحث بعد هذا التقديم في أربعة فصول وتمهيد وخاتمة. تناولت في التمهيد مفهوم التعزية، ومكانة الأبناء وأثر فقدهم في نفوس الآباء. وفي الفصل الأول:(البناء النفسي والفكري) تحدثت عن العوامل النفسية والفكرية التي بنيت عليها رسالة التعزية وكونتها؛ ثم كان الفصل الثاني؛(البناء الفني) وفيه وقفت مع البدء، والانتقال، والختام. وجاء الفصل الثالث(ظواهر فنية)؛ وفيه تناولت أبرز الظواهر الأسلوبية والفنية التي استعان بها الكتاب في التعبير عن تجربتهم، وتشكيل صورهم. أما الفصل الرابع (الخصائص والقيمة) فرصدت ما يميز هذه الرسائل من غيرها، ثم كانت الخاتمة؛ وفيها أشرت إلىٰ ما تضمنته فصول هذا البحث من حقائق، وانتهت إليه من نتائج، ثم ختمت البحث بفهرس للمصادر والمراجع، ثم فهرس الموضوعات.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله،

وصل اللهم وسلم وبارك علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه.

دكتور/ محمد عبد العزيز عبد العزيز

تمهيـــد:

أولا- حول مفهوم التعزية.

العزاء والتعزية: التصبر، وتسلية المُصاب، والتسرية عنه، بذكر ما يهوِّن من مصيبته، ويخفف من وطأة الرزء، ويقشع عنه غيوم الكآبة، وسحائب الحزن، وبث روح التجلد ودفع الجزع، والحض علىٰ الصبر والاحتساب، والرضا بقضاء الله– تعالىٰ–وقدره.

يقول صاحب التعازي والمراثي: "وتَعَزيتُك الرجل: تسليتكَ إيّاه، والعزاءُ هو السُلوُّ، وحسنُ الصبر علىٰ المصائب، وخير من المصيبة العوضُ منها، والرضا بقضاء الله والتسليم لأمره؛ تنجُّزاً لما وعدَ من حسن الثواب، وجعلَ للصابرين من الصلاة عليهم والرحمة"(١). قال الله تعالىٰ: **قال تعالىٰ**: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾. (٢)، وقال أيضا:﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ "(٣).

والأصل في العزاء: الصبر عن كل ما فقدت، ثم اقتصر استعماله في الصبر علىٰ كارثة الموت، والرضا بما قضىٰ الله وقدّر(٤). وهو مرتبة عقلية فوق مرتبة

---

(١)التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا: محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، ص٤٥، طبع نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٣م.

(٢) سورة البقرة: الآيات (١٥٥-١٥٧).

(٣) سورة الزمر: من الآية (١٠).

(٤) لسان العرب لابن منظور:(عزا) . وينظر: الرثاء، د. شوقي ضيف: ص٨٦ ، سلسلة فنون الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، الثالثة ١٩٧٩م.

الندب والتأبين(١)؛ لأنّ المعزِّىٰ– غالبًا– ما "ينفذُ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلىٰ التفكير في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به هذا التفكير إلىٰ معانٍ فلسفية عميقة، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود، ومَردُّ هذا كله أنّ الحياة ظل لا يدوم"(٢).

والتعزية باب جامع؛ فهي "من أكثر ما تكلم فيه الناس، لأنه لم يعْرَ أحدٌ من مصيبةٍ بحميمٍ، ذلك قضاء الله علىٰ خلقه، فكلٌ تكلَّمَ إمّا متعزيًا، وإما معزيًا، وإما متصبرًا محتسبًا"(٣)، وقد قيل: "إنّه لم يُقَل في شيءٍ قط كما قيل في هذا الباب؛ لأنّ الناس لا ينفكُّون من المصائبِ، ومن لم يَثْكَلْ أخاه ثكلَهُ أخوهُ، ومن لم يَعْدِم نفيسًا كان هو المعدومُ دون النفيس"(٤). قالت الخنساء: (من الوافر)

فلــولا كثــرةُ البــاكين حــولي علــىٰ إخــوانهم لقتلــتُ نفســي(٥)

ومدار التعزية حول تسلية المصاب، والتسرية عنه، والدعوة إلىٰ الصبر والاستسلام والرضا بقضاء الله تعالىٰ وقدره، والتأمل في حقيقة المصير الذي

---

(١)الندب: البكاء والنواح علىٰ الميت بالعبارات المشجية، والألفاظ المحزنة، التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة. ينظر: السابق ص ١٢.

أما التأبين: فهو الإشادة بالميت وتعداد محامده وفضائله. وأبّن الرجل تأبينا، وأبنه: مدحه بعد موته وبكاه، قال متمم بن نويرة:(من الطويل)

لعمري وما دهري بتأبينِ هالكٍ ولا جَزِعٍ مما أصابَ فأَوجعا.

وقيل: التأبين: الثناءُ علىٰ الرجل في الموت والحياة. لسان العرب:(أبن).

(٢)الرثاء، د. شوقي ضيف:ص ٦ .

(٣) التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا: ص٤٢.

(٤)الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ٤/ ١٤، دار الفكر العربي بالقاهرة، الثالثة، ١٤١٧ه-١٩٩٧م

(٥) ديوان الخنساء بشرح ثعلب، تحقيق: د. أنور أبو سويلم، ص ٣٢٦، دار عمار، عمان، الأولىٰ ١٤٠٩ه-١٩٨٨م.

تصير إليه كل الخلائق، وذم الدنيا والتنفير منها، والتذكير بالآخرة، وتذكير المعزَّىٰ بما يجب عليه في مثل هذه المواقف من الاسترجاع، والحمد، والتزام الذكر، وحسن الظن بالله تعالىٰ، والتحذير من الجزع خشية فوات الثواب العظيم الذي أعده الله للصابرين، والتأسي بالرسول الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- في مثل هذا الموقف، والدعاء للمعزَّىٰ بالمثوبة والخُلف، وللمعزَّىٰ فيه بالرحمة والمغفرة، وهذا كله مما يخفف علىٰ المعزَّىٰ، ويهوّن من شأن الرزء، ووقع المصيبة(١).

وتختلف التعزية وتتنوع حسب المعزَّىٰ فيه،"فتعازي النساء غير تعازي الرجال، وهي من مستصعبات فن الكتابة والشعر، وتعازي الرجال أيضا تختلف، فلا يُعزىٰ بالميت علىٰ فراشه، كما يعزىٰ بالميت قتيلا، ولا يُعزّىٰ بالقتيل كما يُعزّىٰ بالغريق، وهكذا يجري الحكم في المعاني جميعا، وهذا شيءٌ لا يتنبه له إلا الراسخون في هذا الفن من أرباب النثر والنظم"(٢).

(١)راجع-فيما سبق-رسائل التعزية في العصر العباسي دراسة تحليلية:د.جمال نصر درويش، ص٨-١٠،أطروحة ماجستير مخطوطة،كلية اللغة العربية بالمنصورة،جامعة الأزهر١٤٢٩ه،٢٠٠٨م.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة ٢/ ٢٩، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.

ثانيا- مكانة الأبناء وأثر فقدهم في نفوس الآباء.

والتعزية بالأبناء من أهم أنماط التعزية، وأصدقها عاطفة، وأعمقها تجربة، فالأبناء لآبائهم هم قرة العين، وثمرة الفؤاد، وفلذة الأكباد، وسر بهجتهم وأنسهم، وهم الأمل والرجاء، وزينة الحياة الدنيا، ولهم المنزلة التي لا تدانيها منزلة. وكان العرب في الجاهلية لا يهنئون إلا بغلامٍ يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج(١).

فإذا ماتوا انقطع رجاؤهم من الدنيا، وسيطر عليهم الألم، وشملهم الحزن والجزع، فموت الابن هو الرزء العظيم، والمُصَاب الجسيم الذي يسلب الأجفان كَراها، والأبدان قواها، وصاحبه بين أَنَّةٍ وزفرةٍ، ودمعةٍ وعَبرةٍ، وتململٍ واضطرابٍ، وحزنٍ واكتئابٍ، وحرقةٍ في الصدر والتهاب، وغصةٍ لا يكاد يبرأ منها، ولم يذقْ مرارة الفقد والحرمان، ويشعرْ بألم الحزنِ والفراق من لم يمت له ولد، قال الشاعر:(من المنسرح)

كَلَّ لِساني عَن وَصف ما أَجِدُ ... وَذُقتُ ثُكْلا ما ذاقَه أَحَدُ

وأُوطِنَتْ حُرقةً حَشَايَ، فقد ... ذابَ عليها الفؤادُ والكبدُ

ما عالَجَ الحزنَ والحرارةَ في الـ ... أحشَاءِ مِنْ لَمْ يمتْ لهُ ولدُ(٢)

وقال أبو ذؤيب وقد هلك بنوه: (من الكامل)

أَوْدَىٰ بَنِيَّ وَأَعقَبُوني غُصَّةً ... بَعدَ الرُقادِ وَعَبْرَةً لا تُقلِعُ(٣)

---

(١) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، تحقيق: محمد محيىٰ الدين عبد الحميد١/ ٦٥، دار الجيل، القاهرة، الخامسة١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) التعازي والمراثي: ص١٨٠.

(٣) ديوان الهذليين ١/ ١، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، الثانية ١٩٩٥م.

"وقِيل لأعرابيّة أُصيبت بابنها: ما أحسن عَزاءَك؟ قالت: إن فقدي إياه أمنني كل فقد سواه،وإن مَصيبتي به هَونت عليَّ المصائبَ بعده، ثم أنشأت تَقول:(من مجزوء الكامل)

مَـــن شـــاء بَعـــدك فَلْيمُـــتْ فَعَليـــكَ كنـــتُ أُحـــاذِرُ
كُنْـــتَ الســـوادَ لمُقلتِـــي فعليـــكَ يَبْكـــي النـــاظِرُ
ليـــتَ المنـــازلَ والـــدِّيا رَ حَفـــائرٌ ومَقـــابرُ"(١)

إن موت الولد هو الصدعُ الذي لا يُجبر، والمصيبةُ التي لا يُرجىٰ برؤُها، وقد قيل: "موتُ الولدِ صدْعٌ في الكبد، لا ينجبرُ آخرَ الأبد"(٢).

ولا أدل علىٰ ذلك من حزن النبي الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- عند موت ابنه إبراهيم، فقد آلمه موته، وزرفت عيناه الدموع، وأظلته سحائب الحزن، لكنه صبر وتجلّد، وسلم لأمر ربه، وقال بلسان الراضي المحتسب: "إن العينَ تدمع، والقلبَ يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقكَ يا إبراهيم لمحزونون"(٣).

(١)العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وزميله ٣/ ٤٢٥، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.

(٢) السابق: ٢/ ٤٣٨.

(٣) صحيح البخاري(الجامع الصحيح) تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي١/ ٤٠١، ٤٠٢، باب الجنائز، حديث رقم(١٣٠٣)المطبعة السلفية،القاهرة،الأولىٰ١٤٠٠هـ.

من هنا تأتي أهمية التعزية، فالهدف منها هو التهوين علىٰ المصاب، والتخفيف عنه، وتنفيس كربته، وإخماد لوعته، وتسكين زفرته، ومشاركته في مصابه، والحض علىٰ الصبر والتسليم، والرضا بقضاء الله-تعالىٰ-وقدره.

الفصل الأول: البناء النفسي والفكري

سجل الكتاب في هذه الرسائل ما تنطوي عليه نفوسهم، وما تحويه صدورهم تجاه المتوفَّىٰ، وصاحب المُصاب(المعزَّىٰ)، وقد حاولوا من خلالها التخفيف علىٰ المعزَّىٰ، ومؤازرته في مصابه، ومشاركته فيما نزل به، والتهوين من شأن الرزء ووقع المصاب، والصفحات التالية تحاول الكشف عن محتوىٰ رسالة التعزية وقيمتها الفنية.

أولا- حرص الكتاب على التعزية لكونها من السنن المشروعة.

جاءت الأحاديث النبوية التي تحض علىٰ التعزية، وتدعو المسلم إلىٰ مؤازرة أخيه في مصيبة الموت، والوقوف إلىٰ جواره، والتخفيف عنه، وتسليته في مصابه، وبثّ السلوىٰ في نفسه، ودعوته إلىٰ الصبر والتسليم بقضاء الله- تعالىٰ.

قال- صلىٰ الله عليه وسلم: "ما من مؤمنٍ يُعَزِّىٰ أخاه بمصيبةٍ إلاّ كساه الله سبحانه من حلل الكرامة يوم القيامة"(١). ويقول في حديث آخر:"مَنْ عَزَّىٰ مُصَاباً فله مثل أجره"(٢)، ويقول أيضا: "مَنْ عَزَّىٰ ثكلىٰ كُسي بُرْداً في الجنة"(٣).

---

(١) سنن ابن ماجه (محمد بن يزيد القزويني): تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي١/ ٥١١، حديث رقم (١٦٠١) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون.

(٢) سنن الترمذي(الجامع الصحيح):(محمد بن عيسىٰ بن سوْرة)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ٣/ ٣٧٦، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٠٧٣) طبع عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة، الثانية ١٣٨٨ه-١٩٦٨م. وسنن ابن ماجة: ١/ ٥١١، حديث رقم (١٦٠٢) .

(٣) سنن الترمذي: ٣/ ٣٧٨، ٣٧٩ ، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٠٧٦) .

هذه الأحاديث الشريفة تؤكد أن التعزية من الأمور التي دعا إليها الإسلام، وحض عليها الرسول الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- تحقيقا للأخوة الدينية، وترسيخا للعلاقات الاجتماعية، وحرصا علىٰ مؤازرة المسلم أخاه في مصابه، وبث روح الود والتآخي والمواساة بين المسلمين. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١)، وقال- صلىٰ الله عليه وسلم: "ترىٰ المؤمنين في تراحُمِهم، وتوادِّهم، وتعاطفِهم، كمثل الجسد، إذا اشتكىٰ عضو، تداعىٰ له سائر جسده بالسهر والحمىٰ"(٢).

ومن النماذج التي وردت فيها التعزية اتباعًا للسنة قول ابن أبي الخصال(٣):"لولا أن للدينِ- أعزكَ الله- سنةً في المواساة، راكبها متبِعٌ، وتاركها مبتدِعٌ، لما ذكَّرتُ منكَ ذاكرا، ولا نبَّهتُ حامدا لله- تعالىٰ- فيما نابَ شاكرا"(٤).

---

(١) سورة الحجرات: من الآية (١٠).

(٢) صحيح البخاري٤/ ٩٣، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم(٦٠١١).

(٣) الوزير الكاتب الشاعر أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي، عني بالحديث، وكان متقدما في الآداب، عالما بالأخبار، توفي مقتولا٥٤٠هـ. ينظر: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لابن خاقان، تحقيق: د.حسين يوسف خريوش١/ ٥١٨، مكتبة المنار، الأردن، الأولىٰ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس٣/ ٢/ ٧٨٤، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م. المُغرِب في حلىٰ المغرب: ابن سعيد الأندلسي، تحقيق: د.شوقي ضيف٢/ ٦٦، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال: تحقيق: د.محمد رضوان الداية ص٥٦، دار الفكر، سورية، الأولىٰ ١٤٠٨ه- ١٩٨٧م.

إن من أُولىٰ الرسائل الإسلامية في التعزية بالأبناء- فيما أعلم- رسالة النبي الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- إلىٰ معاذ بن جبل-رضي الله عنه- يعزيه في ابن مات له(١). وهي آية في هذا الباب، وفيها من مواضع الإبداع، وقوة الإقناع، وصدق العاطفة، وجميل العزاء، واطراد التعبير، ما يؤكد أنها للنبي الكريم الفصيح المطبوع محمد بن عبد الله- صلىٰ الله عليه وسلم(٢). ثم تواترت التعزية بعد ذلك علىٰ أنها سنة متبعة، والكاتب- هنا- حريص علىٰ التعزية لكونها سنة من سنن الدين، ولولا ذلك ما عزىٰ صاحب المصيبة، قال الشاعر:(من البسيط)

إني أعزيكَ لا أنّي علىٰ ثقةٍ ... من البقاءِ ولكن سنةَ الدينِ

فما المعزِّي ببـاقٍ بعد صاحبهِ ... ولا المعزِّي وإن عاشَا إلىٰ حين(٣)

والتعزية وإن كانت من السنن المشروعة إلا أنها- أيضا- من السنن الفطرية، إذ نجد لها صدىٰ قبل الإسلام في الجاهلية، يؤكد ذلك آثار الجاهلين الأدبية، الشعرية منها والنثرية(٤).

---

(١) ينظر الرسالة في: حلية الأولياء وطبقة الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني١/ ٢٤٣،٢٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولىٰ ١٤٠٩ه-١٩٨٨م. صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا لأبي العباس القلقشندي ٩/ ٨٠، ٨١، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٣٤ه- ١٩١٦م.

(٢) ينظر: البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي، ص١٢١، ١٢٢، دار الوفاء بالمنصورة، الثانية ١٤٢٣ه-٢٠٠٢م.

(٣) العقد الفريد: ٣/ ٣١٠ .

(٤) يُنظَر بعض خطب التعازي في الجاهلية:الأمالي لأبي علي القالي٢/ ١١١-١١٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م. وكتاب التعازي لأبي الحسن المدائني، تحقيق:ابتسام مرهون الصفار وبدري محمد فهد ص ٨٨-٩٣، النجف، العراق١٣٩١ه- ١٩٧١م. والبيان والتبيين للجاحظ، تحقيق:عبد السلام هارون٤/ ٧٤، ٧٥، مكتبة الخانجي،القاهرة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

جاء عند المبرد في التعازي المراثي: "كانت العرب في الجاهلية- وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً- يتحاضُّونَ علىٰ الصبر، ويعرفون فضله، ويُعيِّرون بالجزع أهله، إيثارًا للحزمِ، وتَزَيُّنًا بالحلمِ، وطلبًا للمروءةِ، وفرارًا من الاستكانةِ إلىٰ حسن العزاءِ، حتىٰ إن كان الرجل منهم ليفقد حميمَه فلا يُعْرف ذلك فيه"(١).

والأمثلة علىٰ ذلك كثيرة في آثار الجاهلين والمخضرمين، قال أوس بن حجر: (من المنسرح)

أَيَّتُهـا الـنَفسُ أَجمِلـي جَزَعـا إِنَّ الَّـذي تَحـذَرينَ قَـد وَقَعـا(٢)

وقال أبو ذؤيب وقد هلك بنوه: (من الكامل)

وَتَجَلُّـدِي لِلشـامِتينَ أُريهِـمُ أَنّـي لَرَيـبِ الـدَهرِ لا أَتَضَعضَـعُ(٣)

فكان الواحد منهم مع حزنه وألمه، وما لاقاه من أثر الفقد يتجلد، ويكتم، ويصبر علىٰ حرقة صدره، والتهاب جوانحه، إيثارًا للحزم، وتَزَيُّنًا بالحلم، وطلبًا للمروءة، وفرارًا من الاستكانة إلىٰ حسن العزاء، فلمَ الحزن والجزع، وما يخشاه قد وقع؟، والجزع لا يرد ذاهبا، ولا يحيي ميتا، ولكنه يسر الشامتين. والأمثلة

(١) التعازي والمراثي: ص ٤٢ .

(٢) السابق ص ٤٣، ٦٣ . وديوان أوس بن حجر، تحقيق: د.محمد يوسف نجم، ص ٥٣، دار صادر، بيروت، الثالثة ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.

(٣) ديوان الهذليين: ١/ ٣.

علىٰ ذلك كثيرة في أشعار الجاهلين والمخضرمين وخطبهم، وعند المبرد في التعازي والمراثي ما يغني عن الاستشهاد(١).

ومن نماذج حرص الكاتب علىٰ التعزية لكونها من سنن الدين، وفعل الصالحين قول ابن مغاور الشاطبي(٢): "ولولا أن التعازي سنةٌ مضىٰ عليها الخلفُ بعد السلفِ ما اجترأنا علىٰ مخاطبةِ حضرة سيدنا ومولانا بها، وإن كانت الذكرىٰ تنفعُ، فقدرهمُ الأسمَىٰ الأرفعُ"(٣).

إن حرص الكاتب علىٰ التعزية إنما هو من باب اتباع السنة، وهو توجه إسلامي مطبوع في نفوس الكتاب في مثل هذا الموقف، طمعا في الثواب، والحرص علىٰ مؤازرة صاحب المصاب في مصابه والتخفيف عنه، وتذكيره بقضاء الله تعالىٰ وقدره، واليقين بنفوذ مشيئته وإرادته، وحضه علىٰ الصبر والتسليم، واطراح الجزع، وحسن الظن بالله تعالىٰ، رجاء جزاء الصابرين.

---

(١) ينظر:التعازي والمراثي ص٤٢ وما بعدها.

(٢)أبو بكر ابن مغاور الشاطبي، من مشيخة الكتاب وجلة الأدباء المشاهير بالأندلس، كان بليغا مفوها، وله حظ وافر من قرض الشعر، وكان فقيها، ت ٥٨٧هـ. ينظر في ترجمته: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار، ص٢٥٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م. المغرب: ٢/ ٣٨٥ .

(٣)ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: تحقيق: د. محمد بن شريفة ص١٦٣، مكتبة النجاح، المغرب، الأولىٰ ١٤١٥ه- ١٩٩٤م. وينظر نماذج أخرىٰ في التعزية عامة: الذخيرة ١/ ٢/ ٩١٣. رسائل ابن أبي الخصال:ص٦١٩، رسائل أندلسية، تحقيق: د. فوزي عيسىٰ ص٢٧٠، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٩م.

ثانيا- التأمل في الموت والحياة

إن رزء الموت يقصم الظهور، ويميت القلوب، ويذيب الأكباد، سيما إذا كان الفقيد هو الابن المرتجىٰ لأبيه، وزهرة حياته، وأمله فيها، فإن الخطب جلل، والوقع أشد وآكد، والجرح أنكىٰ وأوقع، والرزء أفدح وأوجع.

وقد وقف الكتاب في تعازيهم علىٰ حقيقة الموت والحياة وتأملوهما، فالموت سنة الله في خلقه، وهو مصير كل حي، قال تعالىٰ:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (١)، وقال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ (٢).

والحياة الدنيا متقلبة لا تثبت علىٰ حال واحدة، وعلىٰ العاقل أن يدرك حقيقتها، ويعلم أنها لا شك فانية، فلا يغتر بها. قال تعالىٰ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ (٣). وقال الشاعر: (من البسيط)

وَهَـذِهِ الـدارُ لا تُبقـي عَلـىٰ أَحَـدٍ وَلا يَـدُومُ عَلـىٰ حـالٍ لَهـا شـانُ(٤)

من نماذج تأمل الموت قول ابن أبي الخصال في التعزية ببنت: "وهي- أعزك الله-وإن آلمكَ فقدَها، وأوْجعكَ أن استأثرَ بها لحدَها، فليعزِّكَ عنها مصابُنا

(١) سورة آل عمران من الآية(١٨٥)، والأنبياء من الآية(٣٥)، والعنكبوت: من الآية(٥٧).

(٢) سورة الرحمن: الآيتان(٢٦، ٢٧).

(٣) سورة لقمان: من الآية (٣٣).

(٤) البيت لأبي البقاء الرندي، ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:الشيخ أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس ٤/٤٨٦، ٤٨٧، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

بنبينا-عليه السلام- وعلمُك بأنّا جميعا بمَدْرَجَةِ الحِمَام، أفتجدُ علىٰ الأرض خالدًا، وقديما ثَكَلْنا وليدًا نجيبًا ووالدًا؟، فمن خُلق للفناءِ، واختُلِسَ بمرِّ الساعات والآناءِ، جديرٌ أن يتعظَ بنفسهِ، ولا يحزنَ لذهابِ من ذهبَ من ذوي أُنْسِهِ"(١).

التعزية بالنساء لم تكن مألوفة عند العرب إلّا أن تكون أمًّا؛ لذا أطلقوا عليها التعزية بالمستورات- أي النساء- يدل علىٰ ذلك أنّ عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه- توفيت له أخت "فلما فرغ من دَفْنها دَنا إليه رجل فعزَّاه، فلم يَرُدّ عليه شيئًا، ثم دنا إليه آخرُ فعزَّاه، فلم يرُدَّ عليه شيئًا، فلما رأىٰ الناسُ ذلك أمسكوا عنه ومَشَوْا معه، فلما بلغ البابَ أقبل علىٰ الناس بوجهه، وقال: أدركتُ الناس وهم لا يُعَزُّون بامرأة إلا أن تكون أمًّا، انقلبوا رحمكم الله"(٢).

ثم تطورت الحياةُ بعد ذلك حتىٰ وجدنا التعزية في المستورات مقبولة مستساغة، يقول الدكتور محمد بن شريفة: "وإذا كان أدباء المشرق قد تحاشوا- إلا نادرا- تعزية المرء في محارمه فإن الأندلسيين لم يكونوا يتحرجون من ذلك"(٣)، لذا وجدنا الكاتب الأندلسي يعزي في الأمهات، والزوجات، والحظيات، لكنه يكني ولا يصرح، ويستعمل ضمير الغائب عند الكلام علىٰ المتوفاة، رعيا للمقام ووقوفًا مع ما يتطلبه الموقف من الاستحياء والاحتشام(٤).

---

(١) صبح الأعشىٰ ٩/ ٨٦.

(٢) العقد الفريد: ٣/ ٣١٠ .

(٣) أبو المُطرِّف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره. د. محمد بن شريفة ص٢٠٨، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م.

(٤) ينظر: السابق ص٢٠٨.

والكاتب ينطلق في تعزيته من الحديث عن موت النبي الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- تسلية لصاحب المصيبة، وتخفيفا عنه، فكل مصيبة عدا موته-صلىٰ الله عليه وسلم-تهون، وهل هناك فقدٌ أجلُّ خطرًا، وأفدح مصابًا من فقده عليه الصلاة والسلام؟!، وفي الحديث:"فأنا فرط أمتي لن يصابوا بمثلي"(١)، وقال الشاعر:(من الطويل)

تَأمّــلْ إذا الأحْــزَانُ فيــكَ تكاثَفَــتْ أعَاشَ رسُولُ اللّهِ أَمْ ضَمّهُ القَبْرُ؟(٢)

وقال الآخر: (من الطويل)

وفي مــوتِ خيــر الخلــقِ أكبــرُ أُســوةٍ تُصــبِّر أحــرارَ النفــوسِ وتُسْــليها(٣)

لذا وجدنا الكتاب في تعازيهم بالأبناء يتخذون من موت النبي الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- متكئًا يتكئُونَ عليه، تسلية للمصاب، وتخفيفا عنه(٤)؛ فبتذكر موته يسهل الخطب، وتهدأ النفوس، وترضىٰ بقضاء الله- تعالىٰ- وقدره، ثم يوصيه بالصبر والاحتساب رجاء جزاء الصابرين.

وقد جاءت الصياغة التعبيرية والمفردة التي توسل بها الشاعر لتؤكد علىٰ أن الموت حق، فالكلمات: (فقدها، لحدها، مصابنا، الحِمام، ثكلنا، الفناء، ذهاب) تكشف عن حقيقة الموت، وتقرر أنه المنهل المورود، الذي لا يرده جُدود، ولا يعصم من شروعه صدود.

---

(١) سنن الترمذي: ٣/ ٣٦٧، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٠٦٢).

(٢) البيت لديك الجن، ينظر ديوانه بتحقيق: أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري ص١٧١، دار الثقافة، بيروت ١٣٨٣ه-١٩٦٤م.

(٣) البيت لابن زمرك الأندلسي يرثي ولده، ينظر: ديوانه، تحقيق: محمد توفيق النيفر، ص٥١١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الأولىٰ ١٩٩٧م.

(٤)ينظر: ابن مغاور الشاطبي ص٢٢٧. مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٩) ٢٠٠٩م، المغرب، ذيل علىٰ رسائل موحدية (رسائل في تعازي رجال السلطة) د. أحمد العزاوي ص١٦٣.

والاستفهام في قوله:(أفتجد علىٰ الأرض خالدًا، وقديما ثكلنا وليدًا نجيبًا ووالدًا؟) يؤكد أن الموت واقع لكل حي، ولا سبيل للمرء من تحاشيه. قال الشاعر:(من الكامل)

وَإِذا المَنِيَّـــةُ أَنشَـــبَتْ أَظفارَهـــا ... أَلفَيـــتَ كُـــلَّ تَميمَـــةٍ لا تَنفَـــعُ(١)

وقال الآخر:(من المتقارب)

رأيـــتُ الحِمـــامَ يبيـــدُ الأنـــامَ ... وَلَدْغَتُـــهُ مـــا لهـــا راقيـــه

وأرواحنـــا ثَمَـــرَاتٌ لـــه ... يَمُـــدّ إليهـــا يـــدًا جانيَـــه(٢)

وقد خلق الله الإنسان وكتب عليه الفناء، قال تعالىٰ: **{الذي خلق الموت والحياة}**(٣) فقدم الموت لأنه هو الحقيقة الخالدة، وأن الحياة ما هي إلا طريق يعبر عليه المرء للآخرة، وهو حجاج عقلي يستند علىٰ الواقع الذي يؤكد حتمية الموت للأول والآخر، ووجوب الفناء علىٰ كل حي، قال الشاعر:(من الوافر)

يُـــدَفِّنُ بَعضُـــنَا بَعضًـــا وَتَمشِـــي ... أَواخِرُنَـــا عَلـــىٰ هَـــامِ الأَوالـــي(٤)

إن الحياة لا تخلو من فقد عزيز أو حبيب ودفنه تحت التراب، وإذ كانت نهايتها الفناء، والموت لا شك آتٍ، فلا القلقُ ينفع، ولا الحيلةُ تدفع، ولا فدية تُقبل، والجزع علىٰ الأموات مشقةٌ وعناء لا طائل منه، فهل من معتبر؟!(٥).

---

(١) ديوان الهذليين: ١/ ٣.

(٢) ديوان ابن حمديس، تحقيق: د. إحسان عباس ص ٥٢٢، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.

(٣) سورة الملك: من الآية(٢).

(٤) شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمن البرقوقي٣/ ١٥٠، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان١٤٠٧ه-١٩٨٦م. الهام: الرؤوس. الأوالي: الأوائل.

(٥) ينظر نماذج أخرىٰ لتأمل الموت في التعزية عامة: قلائد العقيان١/ ٤٦٩، الذخيرة ٢/ ١/ ١٨٩.

ومن نماذج الحديث عن الدنيا والتأمل في حقيقتها قول ابن عميرة(١) معزيا في ابن أحد الأدباء: "وهي الأيامُ نميرُها حميمٌ، ونضيرها هشيمٌ، إفادتها إفاتة، ومسرَّتها شماتةٌ، ومشارعها كدرةٌ، ونجومُها منكدرةٌ، وحوادثُها معاجِلة مبتدِرَة: ميتٌ ومولودٌ، ومعدومٌ وموجودٌ، ووصلٌ وصدودٌ، وبيضٌ من بناتِ الدهر وسودٌ، فحتىٰ متىٰ يغرنا منها سرابٌ، ويستفزنا من عامرها خرابٌ، ونأملُ ما يبطله أن الذي فوق الترابِ تراب... أملٌ يقبضه أجل، وثبوتٌ غايته زَلل، ومشيدٌ سيقال أنه طلل، وإنما هي حياةٌ منغصة، ونفائسُ قيم مسترخصة، وفرائسُ نفوس مفترصة، فكل يوم نوب تنوب، وحوادث تثوب، ووداع حبيب لا يرجع ولا يؤوب"(٢).

إن حال الدنيا بين تغيّر وتبدّل وتقلّب، فلا دوام لها علىٰ حال، إذا أحسنت يوما أساءت ضحىٰ غد، سُرُورُهَا هَمٌ، وصَفوُ نعيمها كَدَرٌ وغمٌ، وحَبلُ وِصَالهَا مَقْطُوعٌ، فلا ينبغي أن يعنىٰ بها المرء ولا يغتر، لأن هذه طبيعتها، قال الشاعر:(من الكامل)

طُبِعَتْ عَلىٰ كدرٍ وَأَنتَ تُريدُها صَفوًا مِنَ الأَقذاءِ وَالأَكدارِ

(١) أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي، من أهل جزيرة شَقْر، كان كاتبا شاعرا، ت٦٨٥هـ. ينظر:المغرب٢/ ٣٦٣، الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي، تحقيق:د. محمد بن شريفة، د.إحسان عباس١/ ١٥٠وما بعدها، دار الثقافة، بيروت١٩٦٥م.

(٢) أبو المُطرِّف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره. ص ٢٠٧.

وَمُكَلِّـــفُ الأَيـــامِ ضِـــدَّ طِباعِهـــا مُتَطَلِّـــبٌ في المـــاءِ جَـــذوة نـــارِ(١).

والكاتب يسلك سبيل الوعظ، فيعتمد في تصويره علىٰ التنفير من الدنيا، وتبغيضها إلىٰ النفوس، من خلال هذه الصفات التي يخلعها عليها، فالحياة كما يصورها الكاتب شجرة أغصانها لا تورق إلا التعب والمشقة، والقلق والاضطراب، وفروعها نوب تنوب، وحوادث لا تنتهي، وثمرتها الشر المقيم، والحزن الدائم، قال الشاعر: (من الخفيف)

تَعَـــبٌ كُلّهـــا الحَيـــاةُ فَمـــا أعْـــ ـــجبُ إلا مـــن راغـــبٍ في ازديـــاد(٢)

وقد توسل الكاتب لبسط فكرته وتأكيدها بالتضاد:

(نميرها/ حميم)،(نضيرها/ هشيم)،(إفادتها/ إفاتة)،(مسرتها/ شـــــــــماتة)، ميت/ مولود)،(معدوم/ موجود)،(وصل/ صدود)،(بيض/ سود)،(عامرها/ خرا ب)،(ثبوت/ زلل)،(مشيد/ طلل)، هذه الضدية التي لجأ إليها الكاتب تكشف عن حقيقة الدنيا وأنها متقلبة، لا تثبت علىٰ حال، وتؤكد نظرات الشاعر الطويلة في الحياة، وتأمله إياها، وإدراكه لحقيقتها، فهي لا شك فانية تفنىٰ كما يفنىٰ كل شيء فيها، فعلىٰ العاقل ألا ينشغل بها، ولا يلهث خلفها، فإنه حتما سيرجع إلىٰ ربه وهو-سبحانه- سائله عما قدمه في حياته.

كما يظهر دور التضاد الواضح في إيقاظ المتلقي، ولفتهِ إلىٰ ما يريده الكاتب، وترسيخ الفكرة وتثبيتها في ذهنه، وبسط المعنىٰ وإبرازه، ورسم صورة الدنيا وتقلبها، والأيام وتغيّرها.

---

(١) ديوان أبي الحسن التهامي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الربيع ص ٣٠٨، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٢ه- ١٩٨٢م.

(٢) سِقط الزند: أبو العلاء المعري ص٨ ، دار بيروت ودار صادر، بيروت١٣٧٦ه-١٩٥٧م.

إن تصوير الكاتب للحياة الدنيا وتقلبها، وزوالها، وانقضائها، نابع من التصور الإسلامي للكون والحياة، فالله تعالىٰ يقول: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ (١)"وهو تصور يؤكد تأملات الكاتب الطويلة في الحياة، ووقوفه علىٰ حقيقتها.

ثالثا- الحض على الصبر، والرضا بقضاء الله احتسابا للأجر .

إن مصاب الموت أمر عظيم، يعزَّ علىٰ النفوسِ مَسْمَعه، ويؤثّر في القلوب مَوْقِعُه، فالدموعُ واكفة، والأبصار حائرة، والهم رابض، والحزن عاكف لا ينفك عن صاحب المصيبة، وحاله بين عَبْرَةٍ وزَفْرَة، وأَنَّةٍ وحسرة، وتململُ واضطراب وتألم، قد أضعف الحزن عزائمه، ونكأ الألم قلبه، وقرح كبده، لذا يلجأ الكاتب بتعزيته إلىٰ التخفيف، ويدعو صاحبه إلىٰ الصبر والتسليم، والرضا بقضاء الله- تعالىٰ- وقدره، تنجزا للثواب العظيم الذي أعده الله للصابرين﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾"(٢).

وقد جاءت الأحاديث الكريمة التي تؤكد فضل الصبر علىٰ هذا البلاء، والثواب العظيم الذي أعده الله للصابرين علىٰ فراق أصفيائهم. يقول الله- تعالىٰ- في الحديث القدسيّ: "ما لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِندِي جَزاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ

(١) سورة الكهف: الآية (٤٥). ينظر نماذج أخرىٰ في الحديث عن الدنيا وتقلبها في رسائل التعزية: الذخيرة ٢/ ١/ ٣١٦، ٣/ ١/ ٧٨.

(٢) سورة البقرة: الآيات (١٥٥-١٥٧).

مِن أَهْلِ الدُّنْيا ثُمَّ احْتَسَبَهُ، إِلَّا الجَنَّةُ"(١). ويقول- صلىٰ الله عليه وسلم: "إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللهُ: "ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ"(٢).

وقد عزّىٰ الإمام علي- رضي الله عنه- الأشعث بن قيس في ابنه برسالة لم يزد فيها علىٰ الدعوة إلىٰ الصبرِ، والتجلد ودفع الجزع، وبيان جزاء الصابرين المحتسبين(٣).

وقد اتكأ الكتاب في تعازيهم علىٰ الدعوة إلىٰ الصبر، والحض علىٰ التسليم والرضا بقضاء الله –تعالىٰ- وقدره، احتسابا للأجر العظيم الذي أعده الله للصابرين. ومن نماذج ذلك قول ابن أبي الخصال: "وبلغني مُصابه بفلذةٍ من كبدهِ قُدَّتْ، ولَبِنَةٍ من بنائهِ هُدتْ، وأن أبوابَ الأنسِ به سُدتْ، والصفائحُ عليه مُدتْ، فقلتُ له: غايةٌ حُدتْ، وعاريةٌ إلىٰ المعيرِ رُدتْ، وربَّانِيّ الوقتِ، وهادِي السمتِ، ومُقيمُ الأوَدِ والأمتِ... فهنيئًا لفَرَطِهِ الصالح، وذُخرهِ الزَّاكي الراجح، ما اختاره الله له من كرامةِ جِواره، واختصهُ به من إيثارهِ"(٤).

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٧، كتاب الرقاق، حديث رقم: (٦٤٢٤).

(٢) سنن الترمذي ٣/ ٣٣٢، كتاب الجنائز، حديث رقم (١٠٢١).

(٣) ينظر الرسالة في: نهج البلاغة: شرح: أ. محمد عبده، ص٢٠٦، ٢٠٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال ص٩٤. الصفائح: جمع الصفيحة: لوح عريض من الحجر.الأوَدُ والأمت: الاعوجاج، وأقام أوَده: أقام اعوجاجه. الفرَط: الذي يموت ولم يبلغ الحلم من الأبناء.

إن موت الأبناء هو المصاب الذي يفدح، ويوقدُ زَنْدَ الحزن ويقدحُ، فهم ثمرةُ الفؤاد، وفلذةُ الأكباد، وهم الأثر والذكر لآبائهم بعد مماتهم، لكن قضاء الله نافذ، ولو كان الجزع ينشرُ ميتا، والأسفُ يرد فائتا، لسالت العيون عليه بالدموع، والتهبت الأفئدة، واتقدت الأكباد حزنًا وأسفًا، لكن الموت حق، ولا راد لقضاء الله تعالىٰ وقدره، فعلىٰ المُصاب أن يتمسك بالصبر، ويتجلد بالسلوان، ويتضرع بالتفويض والتسليم، ليلقىٰ الله بقلب سليم.

وللمفردة دورها المهم في التعبير عن غرض الكاتب والكشف عما في نفسه، فالمتأمل الكلمات:(مصابه، فلذة، كبده، لبنة، بنائه، هدت،الأنس، سدت) يراها مشحونة بدلالات وظلال معبرة، تؤكد علىٰ مكانة الابن عند أبيه، وخطر هذا المصاب العظيم في نفسه وأثره عليها، وتشي بما في نفس الكاتب نحو هذا الموقف.

والعبارات والكلمات:(غاية حُدت، عارية، ردت، فرطه، زخره، كرامةِ جِواره، إيثارهِ) لها دورها في التهوين من شأن الرزء، والتخفيف علىٰ المعزَّىٰ، خاصة إذا علم أن الأبناء عارية، ومهما طال العمر بالمرء فهو وديعة مسلمة، وعارية مسترجعة، فلئن كان هذا الرزء عظيما، والعيون له منتحبة، والنفوس مكتئبة،والقلوب واجفة، فهو اختيار الله له، إذ اصطفاه إلىٰ جواره، وآثره علىٰ غيره، وهو فضل من الله لأبيه، وسعادة له في الآخرة، وفرط له إلىٰ الجنة، وهي بشارة من شأنها أن تفرج عن والده، وتسلي عنه، وتخفف من أثر الفقد.

وحديث الكاتب عن كون الابن المتوفَّىٰ عارية مستودعة لا بد أن تسترد من المعاني التي دارت في تعازي الكتاب(١)، والشعراء، قال الشاعر: من(المتقارب)

وعاريـــــةٌ في الفتـــــىٰ روحُـــــهُ ولا بـــــدّ مـــــن رَدّهِ العاريـــــه(٢)

ومن نماذج الحض علىٰ الصبر والرضا بقضاء الله تعالىٰ- أيضا- قول ابن مغاور: "فصبرًا جدَّدَ الله أنسكَ صبرًا، لا تندُبْ رِمَّةً وقبرًا، وارضَ به لكريمَتِكَ صِهْرًا بَرًّا، واستقبلْ أجرًا، واستجزِلْ ذُخْرًا، فحَسنةٌ تُرجَّحُ، خيرٌ من عَبرةٍ تُسفحُ، ونفحةٌ من الله تنفحُ، خير من زفرةٍ تتوقدُ وتلفحُ، واحتسبْ مُصابكَ، وتجرع صَابكَ، وقل:﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾(٣)، وإنَّا بكِ يا فقيدةُ لمفجوعونَ علىٰ ما أصابكِ، عملاً بأدبِ الله -تعالىٰ- وتأدبًا، واقتداءً بنبيهِ المجتبَىٰ، فلم يزدْ -صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ هذا القولِ الكريم، مع الصبر والتسليمِ، عند موت ابنه إبراهيمَ"(٤).

الصبر علىٰ مصيبة الموت رجاء الثواب ورضا الله سبحانه، خير من الحزن والجزع، خاصة إذا علم المصاب أن الأمر كله لله، ولا راد لقضائه، فالصبر ثمرته الأجر، والجَزع ثمرته الوِزْر، والتسليم لأمر الله من التقوىٰ وحسن الطاعة، قال الشاعر:(من الطويل)

صَبَرتُ عَلىٰ خَيرِ الفُتُوِّ رُزِئتُهُ وَلَولا اِتِّقاءُ اللَهِ طالَ نَحيبي(٥)

---

(١) ينظر: ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: ص ٢٢٦ .

(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٢٢.

(٣) سورة البقرة: من الآية(١٥٦).

(٤) ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره : ص ٢٢٧.

(٥) ديوان بشار بن برد، تحقيق: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ١/ ٢٧٩ ، الجزائر٢٠٠٧م.

والكاتب- تسلية لصاحبه وتخفيفا عنه- يبرهن للمعزَّىٰ بأن الصبر والاسترجاع والاحتساب هو فعل النبي الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- عند موت ولده إبراهيم، وللمؤمن في رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- الأسوة الحسنة، فقد حزن علىٰ موته، وزرفت عيناه الدموع، لكنه صبر وتجلد، وسلم لأمر ربه وقضائه، وقال بلسان الراضي المحتسب: "إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"(١). والتأسي به في هذا المصاب يجعل للصبر متسعًا، وللحزن مرتدعًا، قال دعبل يبكي ولده:(من الطويل)

وَلَــولا التَأَسّــي بِــالنَبِيِّ وَأَهلِــهِ لَأَســبَلَ مِــن عَينــي عَلَيــهِ شُــؤونُ(٢)

ونجد إلحاح الكاتب علىٰ المفردة التي تدعو إلىٰ الصبر وتحض عليه:(فصبرا، صبرا، لا تندب، وارض، واستقبل، واستجزل، واحتسب، وتجرع، وقل) وهي مفردات تكشف عن دعوته الواضحة إلىٰ الصبر والتسليم، وحضه علىٰ الرضا بقضاء الله- تعالىٰ- وقدره، وتشف عن مواساة الكاتب لصاحب المصاب، ومشاركته إياه في حزنه تخفيفا عنه(٣).

(١) صحيح البخاري: ١/ ٤٠١، ٤٠٢، باب الجنائز، حديث رقم(١٣٠٣).

(٢) شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة: د.عبد الكريم الأشتر ص٢٥٠، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق،الثانية ١٤٠٣ه-١٩٨٣م.

(٣) ينظر نماذج أخرىٰ في التعازي عامة: قلائد العقيان٢/ ٦٦٥، ٦٧٥، الذخيرة ٢/ ١/ ١٩٠، صبح الأعشىٰ٩/ ٨٦.

إن هذه المعاني التي ألح عليها الكتاب في الدعوة إلىٰ الصبر، والحض علىٰ التجلد، وبيان جزاء الصابرين المحتسبين، وأن الأبناء عارية لابد أن ترد هي التي دارت عليها رسالة النبي الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- في تعزية معاذ بن جبل بابنه، يقول: "أما بعد، فعظّم الله أجركَ، وألهمكَ الصبرَ، ورزقنَا وإياكَ الشكرَ، إنّ أنفسنا وأهلينا، وموالينا، وأولادنا من مواهب الله تعالىٰ الهنيّة، وعواريه المستودعة، يمتع بها إلىٰ أجل معلوم، ويقبض لوقت محدود، ثم افترَض علينا الشكر إذا أعطىٰ، والصبر إذا ابتلىٰ، وكان ابنك من مواهب الله الهنيّة، وعواريه المستودعة، متعك به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كبير: الصلاة، والرحمة، والهدىٰ إن صبرت، واحتسبت"(١).

وكأن هذه الرسالة كانت ماثلة أمام الكتاب في تعازيهم يستقون منها، وينهجون طريقها، وينهلون من بلاغتها، ولا ضير، فالنبي الكريم -صلىٰ الله عليه وسلم- أفصح الأولين والآخرين، والتأسي به في هذا الموقف مما يبعث علىٰ السكينة والوقار، والصبر والاحتساب، رجاء ثواب الصابرين والأبرار.

(١) حلية الأولياء: ١/ ٢٤٣ .

رابعا- إظهار التفجع والحزن على المتوفَّى مواساة للمعزَّى.

إظهار التفجع علىٰ المتوفَّىٰ ومدىٰ الحزن والألم الذيْن خلفهما برحيله من الأفكار الرئيسة والنفسية التي تطرد في هذه الرسائل، وهو باعث نفسي ومشاركة وجدانية من الكاتب للمصاب تخفيفًا من وقع الرزء، والحدِّ من ألمه وحزنه، حيث نجد الكاتب يعرب من خلال تعزيته عن مشاركة صاحبه في حزنه ومؤازرته له في ما نزل به.

وقد عبر الكتاب عن حزنهم وتأثرهم تسلية للمعزَّىٰ. من ذلك قول أبي عمر الباجي(١): "بأي لسانٍ -أيدكَ الله- أخاطبكَ مذكِّرًا، أو بأي مقالٍ ألاطفكَ مصبِّرًا، وقد أذهلتْني فجأةُ الخطبِ، وتركتني طائرَ القلبِ واللبِ، وقد رماني ساعدُ الزمانِ حين رماكَ، وأصماني سهمُهُ كما أصماكَ، وثارتْ إليَّ فجائعُهُ من حيثُ ثارتْ إليكَ، ودارتْ عليَّ وقائعُهُ من حيثُ دارتْ عليكَ، ولو كان ما طالعني خطْرَةَ حلمٍ، لكفىٰ به داعيةُ بثٍّ وألمٍّ، فكيفَ إذا كان يقينًا يقطعُ أملَ المؤمَّلِ، ويُبطِلُ رجاءَ المرتجِي المتعلِّل"(٢).

ثورة نفسية تطغىٰ علىٰ الكاتب، وتهيمن علىٰ فكره، عبر عنها بالاستفهام:(بأي لسان أخاطبك؟/ بأي مقال ألاطفك؟) الذي يكشفُ عن حيرته وقلقه من شدة وقع الرزء علىٰ نفسه، وموت هذا الابن الذي اخترمه الدهر

(١) من بلغاء الكتاب، كان فقيها جليلا، عمل كاتبا لابن هود ملك سرقسطة. ينظر في ترجمته: قلائد العقيان: ١/ ٣٠٠، الذخيرة: ٢/ ١/ ١٨٦، المغرب: ١/ ٤٠٥.

(٢) الذخيرة: ٢/ ١/ ١٨٩.

ولـم يمهلـه، ويـوحي بأنـه مضـطرب،قد سـيطرت عليـه المفاجـأة، وأذهلتـه شـدة النازلة،فلا يجد ما يواسي به صاحبه، ويخفف عنه.

إن اختيار الكاتب اللفظة الموحية وما تشيعه من دلالات وظلال فنية له القدرة علىٰ الكشف عن تجربته، والتعبير عن مشاعره، وقد أكدت الصياغة التعبيرية تألم الكاتب وحزنه لما أصاب صاحبه:(أذهلتني، فجأة، الخطب، تركتني طائر اللب، رماني، أصماني، ثارت إلي، دارت علي، وقائعه) وهي مفردات تشف عن خطر الموقف، وهول الخطب، وشدة النازلة، وتكشف عن أثر هذا الرزء الفادح في نفس الكاتب، وفي هذا ما يؤكد مشاركته للمعزَّىٰ في حزنه، وتألمه لما أصابه، وهذه المشاركة الوجدانية مما تخفف من ألم المصاب ووطأته.

ومن ذلك أيضا قول أبي بكر بن خطاب(١): "وقد فَجِئَني من وفاة الأمير... ما أسكبَ الجفونَ دمًا، وصيَّرَ وجوهَ السرورِ عدمًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، تأدبًا مع الربِّ، وتخفيفًا من ثقلِ الكربِ، فلقد صرمتْ منيتُه سببُ أملي، وكسفتْ وجهَ أُنسِي وجذلِي، فالدنيا لناظري مظلمةٌ، والأنباءُ كلها بعد هذا النبأِ موحشةٌ مؤلمةٌ"(٢).

(١) كان كاتبا شاعرا، له مشاركة في أصول الفقه، وعلم الكلام، ت٦٨٦ه. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان ٢/ ٤٢٦، مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولىٰ١٣٩٤ه-١٩٧٤م.

(٢) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٥) سنة ٢٠٠٥م، ص١٥٠، (ملحق برسائل الغرب الإسلامي، تتمة) د. أحمد عزاوي، جامعة ابن الطفيل،المغرب. والأمير: هو ولي العهد أبو سعيد ابن الغالب بالله محمد الشيخ، مؤسس الإمارة النصرية، ت٦٥٢ه. ينظر السابق ص ١٤٨.

إن خطب الموت الفادح، وأثره المؤلم، أذكىٰ في نفس الكاتب الحزن، وألهب جوانحه، وأقضَّ مضجعه، وسيَّر بهجته حزنًا وألمًا، فالدموع ترسَل مدرارا، وأيام سروره ولت إدبارا، والدنيا في عينه موحشة، قد سيطرت عليه الوحشة والألم والحسرة.

وقد اعتمد الكاتب المفردة وما توحي به للتعبير عن أفكاره ومعانيه، والتأكيد علىٰ تأثره وتألمه، فالكلمات والعبارات:(أسكب الجفون دما، صير السرور عدما، صرمت، أملي، كسفت) تكشف عن حاله وتأثره بهذا الخطب الجلل، فالجفون مقروحة، والدموع مسفوحة، والجوانح ملتهبة، والضلوع مضطربة، والنفس جازعة من آثار الهمّ والحزن. والكلمات:(أنسي، جذلي، الدنيا مظلمة، موحشة، مؤلمة) تشف عن ألمه وحسرته لوفاته، وشعوره بالوحشة لفراقه.

هذه التعابير توحي بانفعال الكاتب الصادق بما آلت إليه حال صاحبه، فقد أمسىٰ في حالة سيئة، وموقف يؤثر في النفوس، ويهز المشاعر ويثير الأحاسيس، وكأن الكاتب يعزي نفسه من خلال هذه التعزية التي يتوجه بها إلىٰ الوالد المنكوب في ولده، وفي هذا ما يكشف عن مشاركته لصاحب المصاب، وهو ما يسلي ويسرِّي عن المعزَّىٰ، ويخفف من وطأة الرزء، وشدة المصاب(١).

(١) ينظر نماذج أخرىٰ: الذخيرة ٢/ ١/ ١٩٠، ٣/ ١/ ٧٨. رسائل ابن أبي الخصال ٤١٨.

خامسا - الإشادة بمآثر المتوفَّى وذكر شمائله .

الإشادة بمآثر الابن المتوفَّىٰ، وذكر ما يتسم به من خصال حسان، ومحامد جليلة، مما يكثر في رسائل التعزية، وهو كالتأبين في الشعر، "إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا علىٰ قبر الميت فيذكروا مناقبه، ويعددوا فضائله، ويشهروا محامده، وشاع ذلك عندهم، ودار بينهم، وأصبح في سننهم وعاداتهم"(١).

والكاتب هنا لا يكتفي بتصوير شعوره الحزين وتألمه لما حل بالمصاب، بل يشيد بالميت، ويمجده، ويعدد فضائله، ويبكي حسناته، وشمائله، معبرا عن مدىٰ حزنه وأسفه لما حل بمنْ يعزيه، مصورا مدىٰ الخسارة التي خلفها برحيله، وأثر الفقد علىٰ ذويه ومحبيه.

ومن نماذج ذلك قول أبي عبد الله بن طاهر(٢): "فإنه كان مرجوًا في الأبناءِ، معدودًا في النُّجباءِ، للسيادةِ مرشحًا، وبالفضائلِ مُوشحًا، ينالُ الخيرُ من أعطافهِ، ويعجبُ الدهرُ من أوصافهِ، أكْرِم به من سليلٍ، كان علىٰ أحسن خليقة، وأهدىٰ طريقة، وأقوم سبيلٍ، ولكن يأبىٰ الله إلا ما يريد، فأسعد بجواره ونعم السعيد(٣).

لقد كان هذا الابن جامعا لجميل المحامد والخصال، يؤكد ذلك المفردة التي توسل بها الكاتب في تصويره: فالكلمات:(مرجوا، معدودا، النجباء،

---

(١) الرثاء : د. شوقي ضيف ص ٥٤ .

(٢) من أهل العلم والأدب والمعارف، كان كاتبا بليغا، تغلب عليه النادرة والفكاهة، ت ٥٠٧هـ. ينظر: قلائد العقيان ١/ ١٧٠، الذخيرة: ٣/ ١/ ٢٤ .

(٣)الذخيرة : ٣/ ١/ ٧٨ .

للسيادة، الفضائل، مرشحا، موشحا، الخير) تكشف عن قدر هذا الابن، ومكانته بين ذويه، ومنزلته بين أهله وقومه، فقد كانت الدنيا تزداد إشراقا في نفس أبيه بوجوده معه، فكان أن تكدر صفوه، وتنغص عيشه بعد أن افترسه الموت، وفارقته الحياة، وأفعل التفضيل(أكرم، أحسن، أهدىٰ، أقوم) يشف عن هذا الفضل ويؤكد عليه، والفعلان:(ينْهَلُّ، يعْجَبُ) يوحيان بأنه أهلٌ لهذا الفضل، لا ينفك عنه، وقوله:(يعجب الدهر من أوصافه) استعارة حسنة، فقد جعل الدهر- وهو شيء معنوي- إنسانا يتعجب من أوصاف هذا الابن وشمائله الحسنة علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية. وفيها تأكيد علىٰ فضل هذا الابن.

لقد أدت الصياغة التعبيرية والصورة التي عبر بها الكاتب دورها في الكشف عن سمات هذا الابن، وأكدت علىٰ منزلته وفضله، مظهرا ومخبرا، كما تؤكد علىٰ تأثر الكاتب وتألمه لوفاته، وإشفاقه علىٰ والده، وهي مشاركة وجدانية للمصاب تسلية له وتفريجا عنه، وتذكيره بأن الموت ينشب أظفاره ويفترس الجميع، فلا يفرق بين صغير ولا كبير، ويأبىٰ الله إلا ما يريد.

ومن ذلك- أيضا- قول ابن مغاور: "فلقد كان- رحمه الله-هيِّنًا ليّنا، حييًّا زكيّا، حليمًا كريمًا، مقبوضَ يدِ الأخذِ، مبسوطَ يدِ العطاءِ، محفوفًا بالثناءِ الحارِّ من جميع الأنحاء، وحقَّ لمن نشأ في حِجرِ تأديبكمْ...أن تلوحَ أنوارُ الهدايةِ علىٰ جبينهِ، ويتلقّىٰ رايةَ المجدِ بيمينهِ، ويحوزَ طرفَي السَّنا والسّناءِ في دُنياه ودينهِ"(١).

(١) ابن مغاور الشاطبي ص ١٦٣ .

إن لهذا الابن من السمات والصفات ما يجعل القلب يحزن لفراقه، والعين تدمع لفقده، فقد كان(هينا لينا، حييا زكيا، حليما كريما، مقبوض يد الأخذ، مبسوط يد العطاء، محفوفا بالثناء) وهي صفات توحي بسمو منزلة هذا الغلام، وعلو قدره، وتكشف عن أخلاقه الحسنة، وسماته الطيبة، وشمائله الكريمة، وحق لمن هذه صفاته أن يحزن القلب لفراقه، وتبكي العين لفقده.

وتصوير الكاتب هنا يؤكد علىٰ منزلة هذا الابن ومكانته عند أبيه، وهو يكشف عن مشاركة الكاتب لصاحبه في مصيبته، وهذا من باب العزاء والسلوىٰ التي تخفف من هول الرزء، وشدة الحزن، وآلام الفقد(١). وهذه المعاني التي دار حولها الكتاب في ذكر شمائل المتوفىٰ ومحامده، هي التي دارت حولها قصيدة الرثاء في الشعر العربي، إذ كانوا يبكون في الميت النجدة، والمروءة، والشجاعة، والكرم، والوفاء، والحلم، وغيرها من جليل الصفات، وحميد الخصال(٢).

(١) ينظر نماذج أخرىٰ: قلائد العقيان: ١/ ٤٦٩، ٢/ ٦٦٤، ابن مغاور الشاطبي: ص٢٢٦، نفح الطيب: ٢/ ٢٤٦.

(٢) ينظر: الرثاء : د. شوقي ضيف، ص٥٤ ، ٥٥.

سادسا- الدعاء

حرص الكتاب في تعازيهم علىٰ توشيح الرسالة بالدعاء الذي يناسب المقام، تهوينًا من شأن الرزء، وتسلية لصاحبه وتخفيفا عنه، وقد جاء الدعاء في هذه الرسائل في أولها، وفي وسطها، وفي آخرها، ذلك أن الكاتب إنما يلجأ إلىٰ كل وسيلة من شأنها التخفيف علىٰ المصاب والتسرية عنه وتسليته، والتهوين من شأن المصيبة، ومن هذه الوسائل الدعاء.

والدعاء يجب أن يكون موافقا لحال المخاطب، مناسبا للمعنىٰ، مما تقبل عليه النفوس، وترق له القلوب، يقول الكلاعي: "ويجب علىٰ الكاتب أن يتحرىٰ في الدعاء الألفاظ الرائقة، والمعاني اللائقة، ويتوخىٰ من ذلك ما يناسب الحال، ويشاكل المعنىٰ، ويوافق المخاطب"(١).

ومن نماذج الدعاء قول ابن أبي الخصال: "وبلغتني الفجيعةُ الوجيعةُ بالنجيبِ الحسيب ريعانةِ أنسكَ، ومنْ نفسُهُ مشتقَّةٌ من نفسِكَ، آوَاهُ الله إلىٰ رضوانهِ، ونعَّمهُ في جنانهِ، وثقَّلَ به ميزانكَ، وأخلَىٰ من الفجائعِ زمانَكَ... والله تعالىٰ- يمدُّ في حياتِكَ، ويذودُ المكاره عن ساحاتَكَ، ويُنجِزُ لك ما وعد به الصابرُ المحتسبُ في حميمهِ، مِن وجوب جنتهِ ونَضْرة نعيمهِ"(٢)، وقوله: "ولئن كان المصابُ به عظيما، والخطبُ بفقدانه جسيمًا، فلقد أحسنَ الله إليه وإلىٰ

(١)إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس: ابن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق:د. محمد رضوان الداية، ص٨٢، عالم الكتب، بيروت، الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٦ .

أبوبهِ...جعله اللهُ لهما فَرَطا صالحًا، وذُخْرًا رابحًا، وأنجزَ لهما فيه وعد الحقِ، وثواب الصدقِ، وتكفّلَ لهما بعاجِل المعُوضة، وآجل المثُوبةَ، وربط علىٰ قلوبهما بالصبر، وأمَّنهُما من نوائبِ الدهر، وبارك لهما فيما أعطىٰ، ومتعهما بما أبقىٰ، وخارَ لهما فيما قضىٰ، ونفعهما بالتسليم والرضا"(١).

إن الكاتب يحاول لملمة الجراح، ورأب الصدع، والتخفيف عن المصاب، لذا يلجأ للدعاء تسلية له. والدعاء هنا بطول العمر، وأن يجزيه الله- تعالىٰ- جزاء الصابرين المحتسبين: جنته ورضوانه، ويقيه نوائب الدهر وفجائعه، ويجعل ابنه المتوفىٰ فرط له، وهذا الدعاء مما يزيل من ألم هذا الجرح الغائر، ويخفف من وطئته علىٰ الوالد المنكوب في ولده، وهذا الدعاء مما يحسن في مثل هذه الرسائل.

ومن ذلك- أيضا- قول ابن مغاور: "أطال الله بقاءكَ، راضيا مسلِّمًا، سرَّكَ القدرُ أو ساءكَ، لا يحُلُّ الخطبُ حبوتَكَ، ولا يحتلُّ الجزَعُ رُبْوتَكَ، ولا يَستَفزُّ مُطمئِنَّ وقارِكَ، ولا يَجُزُّ حبلَ اصطبارك، ولا يَقْرَعُ صَفَاتَكَ إلا صَلْدًا، ولا يُثِيرُكُ إلا حازمًا جلْدًا"(٢).

إن الدعاء-في مثل هذا الموقف المؤلم- للمصاب بطول العمر، والرضا والتسليم لقضاء الله- تعالىٰ-وقدره، وأن يَحْيَىٰ حياة رغيدة، خالية من المصائب

(١) السابق: ص٤١٨، ٤١٩ .

(٢) ابن مغاور الشاطبي: ص٢٢٦.

والفجائع، بعيدة عن الجزع والحزن، قريبة من الهدوء والسكينة مما يناسب رسالة التعزية، ويتواءم مع مضمونها.

وقد جاء الدعاء في هذه الرسائل موافقا للغرض، متوائما مع المعنىٰ، ملائما لحال المخاطب- كما أشار الكلاعي- والكاتب إنما يلجأ إليه تخفيفًا من وطأة المصيبة، وفداحة الرزء، فهو يحاول أن يسكن من فورة صاحبه، ويهدِّئ من روعِهِ، ويخفف من فزعه ولوعته، كما يكشف عن حزنه وتألمه لما حل به، ومشاركته له.

إن رسالة التعزية أكدت علىٰ مشاركة الكتاب لإخوانهم في مصابهم، ووقوفهم معهم عندما تحل بهم نازلة، أو تقرع قلوبهم فجيعة، ململمين جراحاتهم، مرشدين إلىٰ الصبر والتفويض، والرضا والتسليم، داعين إلىٰ التمسك باليقين وتقوىٰ الله سبحانه، آملين لهم في عظيم الثواب، وحسن الجزاء، متمسكين في هذا كله بالأدب القرآني، والاسترشاد بالهدي النبوي.

الفصل الثاني: البناء الفني

أولا- البدء

مفتتح الرسالة هو أول ما يطالعه المرسل إليه، وهي لبنة الأساس الأولىٰ التي تبنىٰ عليها، ولذا يلزم أن تكون من احتفال الكاتب بالقدر الذي يتناسب ودورها في تحريك خاطر المتلقي إلىٰ الوجهة التي يريدها عمله الكتابي(١).

وينبغي علىٰ الكاتب أن يجعل من مفتتح الرسالة ما ينم عن مضمون الكتاب، "إن كان فتحا ففتحا، وإن كان هناء فهناء، أو كان عزاء فعزاء"(٢). بحيث يكون الابتداء ملائما لموضوعها، كاشفا عما يقصد إليه من معان ومضامين. فمتىٰ كان الابتداء حسنًا شدّ انتباه المتلقي، وكان أدعىٰ إلىٰ الاستماع لما يجيء بعده من الكلام.

وقد جاء استهلال الكتاب في تعازيهم منوعا؛ ومن ذلك:

أ- الاستهلال بالبسملة مشفوعة بالصلاة علىٰ النبي- صلىٰ الله عليه وسلم.

ولعل ذلك اعتمادا علىٰ قول النبي- صلىٰ الله عليه وسلم- "كل كلام أو أمر ذي

(١) ينظر: كتاب الصناعتين- الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص٤٣١، عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م. مواد البيان:علي بن خلف الكاتب، تحقيق: د.حسين عبد اللطيف ص١٢٢، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس١٩٨٢م. الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: د: مصطفىٰ جواد، د:جميل سعيد ١٨٨، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، العراق ١٣٥٧هـ - ١٩٥٦م.

(٢) المثل السائر : ٣/ ٩٦ .

بالٍ لا يفتح بذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- فهو أبتر، أو قال: أقطع"(١). لذا فقد استهل الكتاب بالبسملة تبركًا، أو طلبا للأجر، ومن ذلك قول ابن مغاور: "بسم الله الرحمن الرحيم، صلىٰ الله علىٰ مولانا محمد وآله، إلىٰ الحضرة السامية ... حضرة سيدنا ومولانا أمير المؤمنين"(٢).

والرسائل التي استهلت بالبسملة قليلة؛ ولعل ذلك من باب الاختصار، "حيث إن افتتاح الرسائل بالبسملة أمر معروف لا حاجة إلىٰ تأكيده... وكان كل حاكم أو والٍ يعلن أنه المدافع عن الإسلام والمتمسك بتعاليمه، فلم يكن من الممكن أن يترك كاتب إيراد البسملة في صدر الرسالة"(٣).

ب- **كما استهلوا بالشعر**؛ وهو من الابتداءات الحسنة، يقول ابن الأثير: "ومن محاسن هذا الباب- يعني باب الافتتاحات- أن يفتتح الكتاب بآية من القرآن الكريم، أو بخبر من الأخبار النبوية، أو ببيت من الشعر"(٤). ويقول الكلاعي: "وقد يستفتحون رسائلهم بالمنظوم"(٥).

ومن نماذج ذلك قول أبي القاسم البلوي(٦) في مستهل تعزية: (من البسيط)

---

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل: تحقيق: أحمد محمد شاكر: ٨/ ٣٩٥، حديث رقم (٨٦٩٧)، دار الحديث، القاهرة: الأولىٰ ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.

(٢) ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: ص١٦٢ .

(٣) الرسائل في مصر الإسلامية إلىٰ نهاية الدولة الإخشيدية: د. أحمد أمين مصطفىٰ ص٢٥٥، مطبعة السعادة، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

(٤) المثل السائر ٣/ ١١٨.

(٥) إحكام صنعة الكلام ص ٦٩، ٧١.

(٦)الكاتب الشاعر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القضاعي الإشبيلي، كان شهير المكان في الصناعة، توفي٦٣٢ه. ينظر: اختصار القدح المعلىٰ في التاريخ المحلىٰ لابن سعيد

يـا أيهـا السـيدُ الأعلـىٰ الـذي شـهرت منـــه الديانـــة في أقصـــىٰ قُـــرىٰ الصـــينِ

مــاذا يقــولُ المعــزِّىٰ وهــو مقتــبِس مـن نـور علمـك يـا ذا الفضـل والـدين(١)

والمتأمل في هذا الشعر يجد أنه من جنس الرسالة وفي موضوعها، وقد تعاون معها في التعبير عن غرض الكاتب، والكشف عما يدور في خلده، وما يجيش في صدره نحو المتوفَّىٰ وأهله.

ج- **كما استهلوا بالدعاء**؛ وجاء ذلك كثيرا، ومن نماذجه قول ابن أبي الخصال: "أطال الله بقاء الفقيه الأجل... للصالحات يصلها، والمشكلات يفصلها، ولا زالت المطايا تشتكيه، والأئمة تستهديه"(٢). وقول ابن خطاب: "أبقىٰ الله مقام مولاي وسعوده دائمة، والآمال لبرق وجوده شائمة، وعيون الحوادث عن كماله نائمة"(٣).

الأندلسي، اختصره: محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق:إبراهيم الإبياري ص ١٢٠، القاهرة ١٩٥٩م. والذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة ١/ ٤٥٣. وفيه ت ٦٥٧ه.

(١) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية: العدد(٩) ٢٠٠٩م، المغرب، ذيل علىٰ رسائل موحدية (رسائل في تعازي رجال السلطة) د. أحمد عزاوي ص ١٦٣، وينظر نماذج أخرىٰ في التعزية عامة: الذخيرة: ٢/ ١/ ٣١٤، رسائل ابن أبي الخصال: ص ٦١٩، رسائل ومقامات أندلسية: ص١٢٩، ونفح الطيب: ٢/ ٢٤٦، وغيرها.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال ص ٩٣، وينظر- أيضا- ص٤١٧، ٦٢٠.

(٣) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٥) لسنة ٢٠٠٥م، المغرب، ملحق برسائل الغرب الإسلامي، تتمة، د. أحمد عزاوي، ص١٤٩.

وقول ابن مغاور: "أطال الله بقاءك راضيا مسلما، سرك القدر أو ساءك، لا يحل الخطب حبوتك، ولا يحتل الجزع ربوتك"(١).

وقد جاء الدعاء هنا موافقا لمضمون الرسالة، مناسبا لمعانيها، ملائما لحال المخاطب، والكاتب يلجأ إليه ليسكن من فورة صاحبه، ويهدأ من روعه، ويخفف من وطأة المصيبة، وفداحة الرزء.

د- كما استغنىٰ بعض الكتاب عن هذه الابتداءات، ودخلوا في الموضوع مباشرة؛ ومن ذلك قول ابن أبي الخصال في مستهل تعزية: "سيدي الأعظمَ، وعَتاديَ الأكرمَ، ومفزَعي فيما أَهُمَّ، ومن أطال الله بقاءَهُ ثابتًا في الملمَّات جَلَدُه، آنِسًا عند الصَّدماتِ خَلَدُه"(٢).

والسبب في خلو هذه الرسائل من الابتداء قد يعود إلىٰ صنيع النساخ والمؤرخين، إذ كانوا يلجأُون لذلك اختصارا، وتخففا من النسخ، وقد يكون السبب هو ما تنطوي عليه نفس الكاتب من فوران الصدر، وجيشان الفؤاد، وصدق الأحاسيس، وقوة الشعور، والحزن المسيطر عليه، فلم يدع أمامه مهلة ليقدّم بين يدي غرضه، فعبر عما في نفسه مباشرة دون تقديم أو استهلال!.

إن التنوع في الابتداءات يعكس تنوع أساليب الكتاب، كما يشف عن تطور أسلوب الكتابة، وهو- أيضا- دليل علىٰ اختلاف العقول والأذواق وتطورها.

---

(١) ابن مغاور الشاطبي: ص٢٢٦. وينظر في التعازي عامة: قلائد العقيان ٢/ ٦٣٣، رسائل ابن أبي الخصال ص٦٢٠، رسائل أندلسية ص ٢٦٨، رسائل ومقامات أندلسية ص٧٩، ٨٢، وغيرها.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال ص٥٦، ٤٨٣.

ثانيا- الانتقال

إذا كان مستهل الرسالة وختامها من العناصر المهمة في بنائها فإن مضمون الرسالة هو أهم ما فيها، وعلىٰ الكاتب أن يربط بين مضمون رسالته في الابتداء كما يدل عليه– أيضا– في الختام، فالبدء والختام لابد أن يرتبطا ارتباطا وثيقا بمضمون الرسالة، فيكون بينهما تواؤم وترابط واضح.

وقد اصطلح النقاد علىٰ تسمية الرابط بينهما بما يسمىٰ: حسن الخروج، أو حسن الانتقال، أو حسن التخلص. يقول صاحب مواد البيان: "حكم المقدمة والتشبيب الواقعين في المنثور والمنظوم أن يكونا متصلين بما بعدهما وغير منفصلين عنه، فأما مقدمة المنثور: فأن يكون اتصالهما بما بعدهما من طريق المعنىٰ، وهو اشتمالها بالقول المجمل علىٰ معاني ما، جعلت مقدمة له، واشتمال ما بعدها علىٰ تفصيل ما أجمل فيها"(١).

وفي هذه الرسائل نلاحظ أن الكتاب كانوا يربطون بين فواتح الرسائل ومضمونها من ناحية اللفظ والمعنىٰ، وفي هذا ما يقوىٰ الربط بين أجزاء الرسالة، ويؤدي إلىٰ تماسكها، ويحقق الوحدة بين أجزائها، وكانوا ينتقلون من الفاتحة إلىٰ مضمون الرسالة بألفاظ مختلفة منها:

أ- **أن ينتقل الكاتب بلفظة مشتقة من الكتابة**، ومن ذلك الانتقال بلفظة (كتبت) كقول ابن طاهر: "الدنيا- صرف الله عنك صروفها- علىٰ الفجائع

(١) مواد البيان: ص ٢٦٦ .

مبنية... وكتبت والدمع محدور، وقد حُمَّ قضاءٌ وَنَفَذَ مقدور، بوفاة الولد الطيب المبارك أبي عبد الله ابننا، وقرّة أعينا"(١).

ومن ذلك- أيضا- الانتقال بلفظة (فكتب) كقول ابن خطاب: "..... فكتب العبد- كتب الله للمقام الأعلىٰ من الصبر أوقاه جنّة، ومن النصر أمضاه أسنة- من مرسية- وقد بلغه الخطب الذي أودع كل قلب حُزنا، وسير سبيل العزاء حَزَنا، وهو وفاة ابنكم"(٢).

ب- **أن ينتقل الكاتب بصيغة:(وبعد)**، ومن نماذجها قول ابن مغاور: "سلام كريم عميم ... وبعد حمد الله الذي لا يحمد علىٰ المكروه والمحبوب سواه، والتسليم بما أنفذه وقضاه، ... فالكتاب من شاطبة حرسها الله- والأمير العزيز أدامه الله باهر المعجزات والآيات، واضح الغرر والشيات، وكلنا بحبله الوثيق نعتصم، وفي ديوان محبته نرتسم، غير غمرة فاضت علينا سيلا، وأوجفت علىٰ سرحنا الآمن رجلا وخيلا... وفاة سيدنا الأجل"(٣).

(١) الذخيرة: ٣/ ١/ ٧٨ .

(٢) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٥) لسنة ٢٠٠٥م. ملحق برسائل الغرب الإسلامي، تتمة، ص١٤٩. وينظر نماذج أخرىٰ في التعازي عامة رسائل أندلسية: ص ٢٩١، رسائل ومقامات أندلسية: ص ١٢٩. قلائد العقيان: ٢/ ٦٦٣، ٦٧٦، رسائل ابن أبي الخصال: ص ٦١٩، صبح الأعشىٰ: ٩/ ٨٦ ، ٩١.

(٣) ابن مغاور الشاطبي: ص ١٦٢، وينظر: ص ٢٥١ .

ج- **وقد ينتقل بلفظة (ورد)** ومن ذلك قول أبي عمر الباجي: "بأي لسان أيدك الله أخاطبك مذكرا، أو بأي مقال ألاطفك مصبرا... وورد كتابُك الجليلُ ناطقًا بلسانِ الرزيَّة، مقصدًا سهمَ الفجيعة"(١).

د- **وقد ينتقل بألفاظ وعبارات أخرىٰ تناسب المقام كقوله: (وبلغني المصاب) (وبلغتني الفجيعة)، ونحوها**، ومن نماذجها قول ابن أبي الخصال: "وبلغتني الفجيعة الوجيعة، بالنجيب الحسيب، ريعانة أنسك، ومن نفسه مشتقةٌ من نفسِك"(٢). وقوله: "وبلغني مصابه بفلذةٍ من كبدهِ قُدت، ولبنةٍ من بنائهِ هُدت، وأن أبوابَ الأنسِ به سُدت"(٣). وقوله: "وبلغني المصاب الذي فدح، وأوْرىٰ زَنْدَ الحزن وقدَح، بثمرة الفؤاد، وفلذة الأكباد، ونور الناظر، وروح الخاطر"(٤).

ه - **وقد لا ينتقل بهذه الصيغ والألفاظ ويدخل في موضوعه مباشرة؛** كما في مستهل رسالة لابن مغاور(٥).

والمتأمل يجد أن الكتاب أحسنوا في طرق الانتقال من الابتداء إلىٰ مضمون الرسالة، إذ نجد ترابطا واضحا، وتواؤما بيَّنا بين البدء والانتقال والمضمون،

---

(١) الذخيرة: ٢/ ١/ ١٨٩.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٦ .

(٣) السابق: ص ٩٤ .

(٤) نفسه: ص ٤١٨ .

(٥) ينظر: ابن مغاور الشاطبي: ص ٢٢٦، ورسائل ومقامات أندلسية: ص ٧٩، ٨٢ ، قلائد العقيان: ١/ ٤٦٩، نفح الطيب: ٢/ ٢٤٦.

فجاءت الرسالة وحدة متماسكة، وهذا راجع- في تقديري- لبراعة الكاتب من ناحية، وطبيعة الموضوع من ناحية أخرىٰ.

ثالثا- الختام

بعد ما ينتهي الكاتب من رسالته يصل إلىٰ الخاتمة، فهي آخر ما يبقىٰ في نفْسه، ويجب عليه أن يجعل ختامه حسنا بليغا. يقول الكلاعي: "وكذلك يجب أن يُستجاد آخر الرسالة ويُتْقن؛ حتىٰ يكون قُفْلاً لمحاسنها، كما أنّ أولها مفتاح لذلك"(١).

والناظر في ختام رسائل التعزية بالأبناء في الأندلس يجد أنها جاءت متوائمة مع مضمونها، مناسبة للتعزية، وقد ختمت بخواتيم منوعة، منها:

أ- **أن يختم الكاتب بالتحية**، وهي قوله:(والسلام عليكم ورحمة الله). ومن ذلك ختام تعزية لابن أبي الخصال: "طالعت الإمام الأجل- وصل الله توفيقه- والفؤاد أعشار، والنوَّم غرار، والدنيا خدع واغترار، فعذرا في التقصير، عن حقه الجليل الخطير ... والسلام الأحفل علىٰ الإمام الأجل ورحمة الله وبركاته"(٢).

وقوله: "والله عز وجل يرزقنا احتسابا جميلا وصبرا، ويؤنسك وقد اختار لك الصهر قبرا، ويعظم لك ثوابا جزيلا علىٰ مصابك وأجرا ... بمنه ورحمته، لا رب غيره، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"(٣).

---

(١) إحكام صنعة الكلام : ص ٢٤٣ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤١٩ .

(٣) صبح الأعشىٰ: ٩/ ٨٦

ب- **وقد يختم (بالدعاء)**؛ وهو من الخواتيم الحسنة، وعليه أن "يتحرىٰ في الدعاء الألفاظ الرائقة، والمعاني اللائقة، ويتوخىٰ من ذلك ما يناسب الحال، ويشاكل المعنىٰ، ويوافق المخاطب"(١).

والختام بالدعاء كثير في هذه الرسائل؛ ومن ذلك قول ابن أبي الخصال:"والله –تعالىٰ– يمد في حياتك، ويذود المكاره عن ساحاتك، وينجز لك ما وعد به الصابر المحتسب في حميمه، من وجوب جنته ونضرة نعيمه... مُتعتَ بأعلاقكَ، ولا فجعتَ بشرفِ سجاياكَ وأخلاقك، وعُوِضْتَ من فَانِيكَ أجرًا خالدًا، وأحسن ما عوّضَ الله من ولدٍ برٍ والدًا بجودِه ومجدِه"(٢).

وقوله: "فسح الله مداه، ولا سَلبنَا ما ألبسنا من هدْيهِ وهُداه، وعمر بشهبِ العلم سماءَه ومُنتداه، بجوده وعلاه، لا ربَّ سِواه"(٣).

ج- **وقد يختم بالدعاء مشفوعا بلفظة (والسلام)**؛ وهذا وارد في كثير من رسائل التعزية، كما في ختام ابن أبي الخصال(٤). ورسائل ابن مغاور(٥) وابن

(١) إحكام صنعة الكلام: ص ٨٢.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٥٦، ٥٧. الأعلاق: جمع عَلْقٌ وعِلْقٌ، وهو الشيء النفيس.

(٣) السابق: ص٩٧. وينظر في التعازي عامة: السابق: ص٤٨٥، ٦٢٠، قلائد العقيان: ٢/ ٦٦٦، ٦٧٦.

(٤) صبح الأعشىٰ: ٩/ ٨٧، ٩٠.

(٥) ابن مغاور الشاطبي ص ١٦٣، ٢٢٧. وينظر: رسائل أندلسية ص ٢٧٠.

خطاب(١) وختام أبي القاسم البلوي: "والله يحرسُ أنواركم، ويحسنُ عزاءكم، ويجعل الجنةَ التي أعدت للمتقين جزاءكم، والسلام"(٢).

د- **وقد لا يختم بشيء من هذه الأمور**، فيكون نهاية كلامه هو ختام رسالته، كما في ختام أبي عمر الباجي(٣)، وابن طاهر(٤)، وابن عميرة(٥).

هذا التنوع في الختام يعكس مدىٰ اهتمام الكتاب وحرصهم علىٰ انتقاء خواتيمهم؛ حتىٰ تأتي مناسبة لما يكتبون، وملائمة لحالة المتلقي، حتىٰ تقع منه موقع القبول والتأثير، وبذلك تحقق الإقناع والإمتاع معا. ولا عجب في ذلك: "فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه، والغايةُ في كماله"(٦).

(١) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٥) سنة ٢٠٠٥م، المغرب، ملحق برسائل الغرب الإسلامي، تتمة، ص١٥٠ .

(٢) السابق، العدد (٩) لسنة ٢٠٠٩م، المغرب، ذيل علىٰ رسائل موحدية (رسائل في تعازي رجال السلطة) ص ١٦٣ .

(٣) ينظر: الذخيرة: ٢/ ١/ ١٨٩، ١٩٠ .

(٤) ينظر: السابق: ٣/ ١/ ٧٨، ٧٩.

(٥) ينظر: أبو المُطرِّف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره. ص ٢٠٧.

(٦) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيىٰ بن حمزة العلوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي٣/ ١٠٤، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

الفصل الثالث: ظواهر فنية

للصورة الفنية مكونات وعناصر تتشكل منها وتتآزر جميعها لتنتج في النهاية المعاني المتآلفة التي تثري الفكر، وتقوي الشعور، وتمتع الإحساس، فهي "لا تخرج إلىٰ حيز الوجود إلا من خلال تجربة مرت بالأديب، تحرك بها وجدانه، ومارت بها عواطفه، ففارت تلك التجربة حتىٰ تجاوزت حدود الشعور الداخلي، فانتقلت في صور شتىٰ لتعْبُر حاجز الشعور إلىٰ الإحساس، لتعبِّر عن مكنون النفس وخلجات الفؤاد، وقد اصطنع لها الأديب سياقا بيانيا خاصا قوامه الألفاظ، والتراكيب، والإيقاع الموسيقي، والرمز الإيحائي الذي يتولد عن الألفاظ والعبارات، وكل ما يدخل معجمه الأسلوبي من استخدام الحقيقة والمجاز، وأدوات النداء، والاستفهام، وتردد العبارات بين الجمل الفعلية والاسمية، واستخدام الصورة للفعل ماضيا أو مضارعا، وحسن التعليل، أو التخلص، أو التقسيم، وما يزيّن الصورة من محسنات بديعية"(١).

وتتجلىٰ قدرة المبدع في إبداعه الصورة التي تكشف عن تجربته وتثريها، وتعبر عن إحساسه ومشاعره، ويستطيع من خلالها نقل ما يجيش في صدره للمتلقي حتىٰ يشاركه معه، ويشعر بما يشعر به، فيتفاعل معه، وينفعل بتجربته، ويشاركه آماله وآلامه.

(١) من صحائف النقد الأدبي: د. عبد الوارث عبد المنعم الحداد ص٢٨٣، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م. بتصرف.

وقد عبر الكتاب عن تجربتهم في قالب أدبي أخاذ ينبئ عن انفعال حقيقي، وإحساس حي بالمواقف التي يعالجونها، والفكرة التي يرومون التعبير عنها، وقد استعانوا بالوسائل المنوّعة، وأنماط التصوير المختلفة التي أعانتهم في نقل تجربتهم، وما يختلج في صدورهم من مشاعر وأحاسيس، والبوح بما في نفوسهم من أفكار ومعان، **ونحاول الآن الوقوف مع أبرز هذه الوسائل والظواهر الأسلوبية والفنية.**

أولا- القران الكريم

اتكأ الكتاب في تصويرهم وتسجيل تجربتهم علىٰ القرآن الكريم، فالكاتب"أحوج الناسِ إلىٰ الاستشهاد بكلام الله- تعالىٰ- في أثناءِ محاوراته، وفصولِ مكاتباتهِ، والتَّمثُّلِ بنواهِيهِ وأوامرهِ، والذكر لقوارعهِ وزواجرِهِ، وهو حِلْيةُ الرسائلِ، وزينةُ الإنشاءاتِ، وهو الذي يَشُدُّ قُوَىٰ الكلامِ، ويُثَبّتُ صحتَهُ في الأَفهَامِ، فمتىٰ خلتْ منه كانت عاطِلةً من المحاسنِ، عاريةً من الفضائلِ؛ لأنّه الحُجَّةُ التي لا تُدْحضُ، والحقيقةُ التي لا تُرْفَضُ"(١).

والمتأمل في هذه الرسائل يظهر له بوضوح حرص الكتاب علىٰ الأخذ من آي الذكر الحكيم، وتضفير رسائلهم به، وأضحىٰ الاعتماد عليه سمة بارزة في هذه الرسائل، استجابة للحس الديني في نفوس الكتاب، واتخاذهم منه قاعدة ينطلقون منها في معالجة مثل هذه المواقف النفسية.

(١) القانون في ديوان الرسائل: علي بن منجب الصيرفي ت٥٤٢هـ، تحقيق: د.أيمن فؤاد سيد، ص٨، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

ومن نماذج ذلك قول ابن أبي الخصال: "للإمام الأجل– أيده الله– مثل الخير، ولا تناولته يد الضير، ولا وجد أوامًا، ولا ذعرت له الحوادث سوامًا، ويا نار الحزن كوني عليه بردا وسلامًا، ويا صنع الله عاقده لزامًا، وحالفه دوامًا، فقد أصبح للمتقين إمامًا، وصدرًا في الدين، إذا مروا باللغو مروا كراما"(١).

استعان الكاتب في تصويره بالقرآن الكريم كي يبرز معانيه ويوضحها، ويرسخ الفكرة ويقويها، فقوله: "ويا نار الحزن..." هو من قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ (٢) وهو يؤكد علىٰ شدة حزن هذا الوالد علىٰ فلذة كبده، وثمرة فؤاده، والكاتب يستدعي قصة إبراهيم–عليه السلام–حين ألقاه قومه في النار، والصلة واضحة، والرابط جميل، فالنار التي أُلقي فيها إبراهيم– عليه السلام– لا تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، فهي تحرق وتذيب، ونار الحزن تحرق القلوب، وتذيب الأكباد.

وقوله: أصبح للمتقين إماما، وصدرا في الدين، إذا مروا باللغو مروا كراما"، هو من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ (٣)،﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ۝٧٢﴾ (٤). وهو يوحي بمدىٰ إيمان هذا الوالد

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٩٦، ٩٧ .

(٢) سورة الأنبياء: الآية (٦٩).

(٣) سورة الفرقان: الآية (٧٤).

(٤) سورة الفرقان: الآية (٧٢).

وصبره علىٰ فقْدِ فلذة كبده، فهو الفقيه الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه من غيره، وأولىٰ به أن يصبر ويحتسب، رجاء جزاء الصابرين المحتسبين.

ومن نماذج استعانتهم بآي الذكر الحكيم قول ابن مغاور: "فصبرا جدد الله أنسك صبرا... واحتسب مصابك، وتجرع صابك، وقل:(إنا لله وإنا إليه راجعون)، وإنا بك يا فقيدة لمفجوعون علىٰ ما أصابك عملا بأدب الله- تعالىٰ- وتأدبا"(١).

يوصي الكاتب الوالد المنكوب في ابنته بالصبر والثبات، والرضا بقضاء الله وقدره، وأن يحتسبها عند ربه لتكن له ذخرا في الجنة، والكاتب هنا يشير إلىٰ قوله تعالىٰ:قال تعالىٰ: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ ﴾ (٢)، وهو اقتباس يتواءم مع الموقف ويناسبه، ويحض علىٰ الصبر والاحتساب، والتسليم لأمر الله وقضائه، تنجزا للثواب العظيم الذي أعده الله الصابرين:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ (٣). ونماذج اعتماد الكتاب علىٰ القرآن الكريم والأخذ منه وتضفير رسائلهم به في تعازيهم كثيرة واضحة، تؤكد حرص

(١) ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره : ص ٢٢٧.

(٢) سورة البقرة من الآية (١٥٥)، والآية (١٥٦).

(٣) سورة البقرة : الآية (١٥٧).

الكتاب علىٰ توظيف القرآن الكريم توظيفا فنيا يخدم أفكارهم، فهو المعين الثر الذي ينهلون منه، والنموذج الفريد الذي ينهجون علي غراره(١).

ثانيا - الحديث النبوي الشريف

كما لجأ الكتاب إلىٰ الحديث النبوي الشريف في التعبير عن مشاعرهم، والإيفاء بمعانيهم، وتثبيت أفكارهم في نفس المتلقي. ومن ذلك قول ابن أبي الخصال(٢): "وهنيئا للإمام- أيده الله- مودعٌ: موعده الجنة، ومفدىٰ: هو له فداء وجُنة، فإنما المؤمن خامةُ زرع، وذُؤابةُ فرْعٍ تُفَيِّئُهَا الرياحُ يمينًا وشمالا، وتلينُ في يديها إدبارًا وإقبالًا، والكافرُ أرزةٌ مُجْذِيَةٌ تتحاماها المعرَّة، ثم تكرُّ عليها كَرَّة، فيكون انجعَافها مرّة(٣). قال رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم-: "إذا أرادَ الله بعبدِهِ الخيرَ عجَّل له العقوبةَ في الدنيا، وإذا أرادَ بعبده الشرَّ أمسكَ عنه بذنبِهِ حتىٰ يوافىٰ به يوم القيامة"(٤). وقال- صلىٰ الله عليه وسلم: "أي الناس أشدُّ بلاء؟ فقال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلىٰ المرء علىٰ حسب دينه، فما يبرحُ البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي علىٰ الأرض وما عليه خطيئة"(٥). وقال- صلىٰ الله عليه

(١) ينظر علىٰ سبيل المثال: رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤١٨، ابن مغاور الشاطبي: ص٢٥٢، ورسائل أندلسية: ص ٢٩٢.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال ص ٩٥، ٩٦ .

(٣) الخامة: الطاقة، والقصبة الغضة اللينة من الزرع. تفيئها: تميلها وتحركها.الأرزة: شجر الأرزن، وقيل: هو الصنوبر. المجذية: الثابتة المنتصبة. المعرة: الأذىٰ. انجعافها: انقلاعها.

(٤) سنن الترمذي ٤/ ٦٠١، كتاب الزهد، ما جاء في الصبر علىٰ البلاء، حديث رقم(٢٣٩٦).

(٥) السابق ٤/ ٦٠١، ٦٠٢، كتاب الزهد، ما جاء في الصبر علىٰ البلاء ، حديث رقم (٢٣٩٨).

وسلم: "ما يزالُ البلاء بالمؤمنِ والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتىٰ يلقىٰ الله وما عليه خطيئة"(١).

قول الكاتب:"فإنما المؤمن خامة زرع..."، هو من قوله- صلىٰ الله عليه وسلم: "مثل المؤمن كالخامة من الزرع، تفيئها الرياح، تصرعها مرة، وتعدلها أخرىٰ، حتىٰ يأتيه أجله، ومثل الكافر مثل الأرزة المجذبة علىٰ أصلها،لا يقلها شيء حتىٰ يكون انجعافها مرة"(٢).

وقد استطاع الكاتب أن يحل هذه المعاني النبوية في نثره، بما يؤكد تأثره بالحديث الشريف ومعرفته به، واتصاله بهذا التراث النبوي، وقد ساعدت هذه المعاني علىٰ إبراز الفكرة، وأضفت علىٰ نثره الوضوح، والقوة والرسوخ.

واستعانة الكاتب بهذه الأحاديث الشريفة في نثره مما يخفف من وطأة الرزء وشدة المصيبة، ويسكن من لوعة المصاب، ويطفئ من جذوة زفرته، سيما إذا علم المعزَّىٰ أن البلاء إنما يقع للمؤمنين، والله يبتلي من عباده الأمثل فالأمثل، كلٌ علىٰ قدر دينه، ليمحصهم ويطهرهم من ذنوبهم، فإذا صبروا واحتسبوا جزاهم الله جزاء الصابرين المحتسبين.

إن اعتماد الكتاب في تصويرهم علىٰ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يعضد أفكارهم، ويقوي معانيهم، ويبرزها للقارئ، ويضفي علىٰ

(١) السابق ٤/ ٦٠٢، حديث رقم (٢٣٩٩).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ١٥١، (كتاب صفة القيامة والنار)، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، الأولىٰ ١٣٤٩ه- ١٩٣٠م.

نتاجهم الأصالة والرصانة، ويرتقي بهم وبأدبهم، ويجذب القلوب إليهم، ويحقق لهم الإقناع.

ثالثا- الاستفهام

هو وسيلة من وسائل التعبير المهمة، يتخذها الكاتب سبيلاً لتثبيت الفكرة في نفس القارئ، وتلوينًا لطرق الأداء في التعبير عنها، ولها دورها في إثارة الحركة في النص، وصبغه بالحيوية، وهي مما تشد المتلقي وتثير انتباهه، وتجعله يتشارك مع الكاتب تجربته، ويشعر بما يجيش في نفسه.

وقد استعان الكتاب به في التعبير عن حزنهم وتألمهم تسلية للمعزَّىٰ، وجاء ذلك غالبا في مستهل تعزيتهم، ومن ذلك قول ابن طاهر: أي ذهنٍ- أيدكَ- الله- ينطاع، أم أي كلام يستطاع؟، واللسانُ معقول، والفؤاد منقول، والدمع هامر، والشجو دائر، لما طرقت به الأيام، وقرع به الحِمام"(١).

إن الاستفهام (أي ذهن، أي كلام؟) من شأنه أن يقرع الأسماع، ويوقظ المتلقي ويشده ليتفاعل مع الكاتب في تجربته، والكاتب يتوجه بالسؤال لصاحب المصاب ليكون حافزا له علىٰ الصبر والعزاء، والرضا والسلوان، فقد أثرت شدة الخطب في نفسه حتىٰ عقلت لسانه، وشمله الحزن والألم.

والاستفهام هنا له دوره الواضح في تفخيم الرزء، والتأكيد علىٰ فداحته وشدته، وأثره في النفوس، ويوحي بتأثر الكاتب وتألمه لما أصاب صاحبه، وقد جاء كاشفا للمعنىٰ، مرسخا للفكرة.

(١) الذخيرة: ٣/ ١/ ٨٠.

ومثله قول أبي عمر الباجي: "بأي لسان-أيدك الله- أخاطبك مذكرا، أو بأي مقال ألاطفك مصبرا؟، وقد أذهلتني فجأة الخطب، وتركتني طائر القلب واللب"(١).

فالاستفهام هنا بـ (أي) يكشف عن حيرة الكاتب ودهشته من شدة وقع الرزء علىٰ نفسه، كما يؤكد علىٰ فداحة الرزء وشدة المصاب، وهو يضفي علىٰ النص الحركة والمرونة والحيوية، ويؤكد علىٰ تأثر الكاتب بهذا الخبر المؤلم(٢).

رابعا- توشيح الرسالة بالشعر

للشعر قيمة لا تنكر؛ لما يملكه من طاقات إيحائية، ودلالات وظلال فنية تثير في نفس المتلقي التأمل والدهشة والإمتاع، والكتاب هم أعلم الناس بالشعر وقيمته(٣) لذا وشحوا به رسائلهم، ووظفوه توظيفا فنيا يثري الرسالة ويشد من أزرها، ويعضد أفكارها حتىٰ تنحو نحو الكمال الفني، وتقع من المتلقي موقع القبول والتأثير.

يقول ابن منجب الصيرفي: "ويجبُ علىٰ الكاتبِ أن يكونَ حافظًا للأشعارِ راويًا للكثيرِ منها، يَستشْهِد بما عساهُ يَحْسُنُ الاستشهادُ بهِ في بعض المواضعِ،

(١) السابق: ٢/ ١/ ١٨٩.

(٢) ينظر نماذج أخرىٰ للاستفهام: الذخيرة: ٢/ ١/ ١٨٩، رسائل ابن أبي الخصال: ص ٩٤، ابن مغاور الشاطبي: ص ٢٢٦ ، صبح الأعشىٰ ٩/ ٨٦.

(٣) ينظر: العمدة في محاسن الشعر ونقده : ٢/ ١٠٥ .

فإنهُ للمنظومِ من البهجةِ في النفسِ، والوقْعِ في القلبِ ما ليسَ للمنثورِ، وربما حلَّ منهُ ما يحتاجُ إليه فأتىٰ به منثورًا في أثناءِ رسائلهِ وطَيِّ إنشاءاتهِ"[1].

إن توشيح الرسالة بالشعر يرتبط بإبداع الكاتب وخصوبة خياله، وقوة تصويره، وقدرته علىٰ تصريف الشعر في مكانه المناسب من الرسالة، ورؤيته الفنية لطبيعة التوظيف الذي ينشده، فهو لا يسترفد الشعر لمجرد التنميق أو التزيين أو النقل والتسجيل، وإنما يضفي عليه دلالات وظلال تثري الرسالة بما يحقق الهدف المنشود من استرفاده سواء كان هدفا فنيا، أو موضوعيا، أو كليهما معا.

وقد وجدنا هذه الظاهرة واضحة جلية في كتابات الأندلسيين، والمتأمل في رسائل التعزية في الأندلس يجد ذلك واضحا، فقد استعانوا بالشعر في رسائلهم، ووظفوه فنيا بحيث يفي بغرض الكاتب، ويغني الرسالة ويثريها، ويشد من أزرها.

ومن هذه النماذج قول ابن مغاور الشاطبي معزيا في بنت: "أطال الله بقاءكَ، راضيًا مسَلِّمًا سرَّكَ القدرُ أو سَاءكَ، لا يحُلُّ الخطبُ حُبْوَتُكَ... ولا يَقرَعُ صَفَاتكَ إلا صَلْدًا، ولا يُثِيرُكَ إلا حازِمًا جلْدًا:

فما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ ولا بدَّ يومًا أن تُردَّ الودائع(٢)

ففيمَ يضيقُ صدركَ الواسعُ، ولمَ لا يدنو أملُكَ القصيُّ الشاسِعُ، واللهُ أعطىٰ ووهبَ... منحَ مِنْحَةً سمَّاهَا بنتًا أنَّسَ بها وقتًا، ثم سلَّطَ عليها آفةً تسمىٰ موْتًا؟:

وما الناسُ إلا ميتٌ وابن ميتٍ وذو نسبٍ في الهالكينَ عريقُ

(١) القانون في ديوان الرسائل: ص ١١.

(٢) البيت للبيد، شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: د.إحسان عباس، ص١٧٠، وزارة الإرشاد، الكويت، ١٩٦٢م. وفيه (إلا وديعة).

وهل كانت المتوفاة ... إلا لؤلؤةً استرجعها المعيرُ، وقرارةً استشفَّها الهَجيرُ، أصبحتْ أملًا موفورًا، وأمستْ عملًا صالحًا مذخورًا؟، فاصدعْ بيدِ اليقينَ مُولاةَ الرَّيْبِ، وتَسَلَّ بقولِ أبي ذؤيب:

أَمِنَ المنُونِ وَرِيبِهِ تتوجعُ والدهرُ ليس بمُعْتبٍ منْ يجزع(١)

وليُسَلِّك- أدام الله عزك-عنها أنها تكونتْ في صدفِكَ، ونشأتْ في كنفكَ...إلىٰ أن اختار الله- تعالىٰ- لها ما عندَهُ"(٢).

إن المتأملَ في هذه الرسالة يجد أن الكاتب اعتمد في تصويره علىٰ الشعر، فوشح به رسالته، واستعان به في التعبير عن غرضه وكشف معانيه، وبث أفكاره، فالشاهد الشعري الأول يبين أن الأبناء عارية ووديعة، ولابد يوما أن ترد الودائع إلىٰ بارئها وخالقها وهو الله سبحانه.

والبيت الثاني يقرر أن الموت حق وأن كل حي سوف يموت، لا يشفع له نسبه ولا حسبه، وأصله:

أَرىٰ كُلَّ حَيٍّ هالِكًا وَابنَ هالِكٍ وَذا نَسَبٍ في الهالِكينَ عَريقِ(٣)

ونلاحظ براعة الكاتب في تطويع النص الشعري وتحويره لخدمة غرضه، وملاءمته للسياق والمعنىٰ الذي أراده، ويكشف لنا هذا التحوير عن حفظ الكاتب لشعر السابقين عليه، وحرصه علىٰ الاستعانة به في رسالته، وتطويعه في تحقيق هدفه.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب في رثاء بنيه. ينظر: ديوان الهذليين: ١/ ١. وفيه:(أمن المنون وريبها).

(٢) ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره : ص٢٢٦ .

(٣) البيت لأبي نواس، ديوانه بتحقيق: ايفالد فاغنر ٢/ ١٥٨، ١٥٩، بيروت ١٣٩٢ه-١٩٧٢م.

والشاهد الأخير مطلع قصيدة أبي ذؤيب في رثاء بنيه وقد هلكوا جميعا، لكنه مع هذا صبر وتجلد وكتم حزنه إيثارا للحزم وإظهارا للمروءة، مع شدة حزنه وتألمه، والشاعر في قصيدته كأنه يعزي نفسه ويسليها إزاء هذا الحادث المؤلم الشديد حقا علىٰ النفس، وهو يعي جيدا أنه لا يستطيع لهذا الأمر دفعا ولا ردا.

وهذا الشاهد يؤكد علىٰ أن الجزع لا ينفع، فالدهر لا يواسي من يجزع، ولا يعزي من يحزن، فلِمَ الحزن والألم، وعلام الحسرة والندم؟!، فالصبر والتسليم أولىٰ في مثل هذا الموقف. وقد أجاد الشاعر في استدعاء هذا الشعر لأبي ذؤيب، فمتىٰ علم المعزَّىٰ بحاله وهلاك بنيه، فالأولىٰ به أن يتعزَّىٰ ويتعظ، ويصبر ويحتسب، وهذا مما يخفف عنه، سيما إذا قيست مصيبته بمصيبة أبي ذؤيب.

إن الشعر هنا يخفف من وطأة المصيبة وشدة الرزء، ويسكن من لوعة المصاب، ويهدئ من روعته، كما يقوي من فكرة الرسالة، ويفي بغرضها، ويتواءم مع معانيها، فنجد أن المعاني متلاحقة متتابعة، والأفكار متحدة متماسكة، والصورة واضحة محكمة، فلا نشعر بفجوة أو تكلف أو إقحام له بين النثر، ولكننا نرىٰ التواؤم التام، والتماسك الذي يفضي في النهاية إلىٰ توافق اللفظ مع المعنىٰ، وتلاؤم الشكل مع المضمون.

وهو يحمل معاني كثيرة، تكشف عما في نفس الكاتب، وتسعفه في التعبير عن غرضه، وفيه دعوة واضحة إلىٰ التفويض والتسليم والرضا، ناهيك عن أثره في إيقاظ المتلقي وشد انتباهه، ودفع السأم عنه، وهو شاهد صدق علىٰ براعة

الكاتب في تطويع النص الشعري لخدمة غرضه، وإن لم يكن له فضل إنشاء هذا الشعر، فإنّ له فضل اختياره منه ما يعينه علىٰ أداء المعنىٰ وملاءمته للسياق(١).

خامسا - حل المنظوم

ويتصل باستعانة الكاتب بالشعر في رسالته ما يعرف بحل المنظوم أو نثر المنظوم، حيث يتجه الكاتب إلىٰ حلّ البيت الشعري أو جزء منه ونثرِهِ، وبثه في تضاعيف رسالته، والتمثل بمعناه. والحل- كما يقول القلقشندي- "هو أن يعمد الكاتب إلىٰ الأبيات من الشعر ذواتِ المعاني فيحُلَّها من عُقُلِ الشعر ويسْبُكها في كلامه المنثور"(٢).

وقد رأىٰ الكلاعي أن حلَّ المنظوم ونثره "طريقةٌ للكتَّابِ أنيقةٌ"(٣)، وهذا دليل براعة الكاتب وإجادته. والحلُّ يُغير من دلالة الأبيات في سياقها الجديد، ويُلبِسها ثوبا قشيبا، وتَبقىٰ الدِّلالة القديمة للبيتِ الشعريّ تُناوشُ الذهنَ، ومن ثم نرىٰ ازدواجية الدلالة مما يكون له أثر لا ينكر في إثراء المعنىٰ، وتعميق الفكرة(٤).

(١) ينظر نماذج أخرىٰ الذخيرة: ٣/ ١/ ٨٠، قلائد العقيان ٢/ ٦٦٤.

(٢) صبح الأعشىٰ: ١/ ٢٨١.

(٣) إحكام صنعة الكلام: ص ١٤٤.

(٤) ينظر: رسائل القاضي الفاضل دراسة تحليلية: د.محمد عبد الرحمن عطا الله، ص٣١٤، دار الحضارة، طنطا ٢٠٠٠م.

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال: "طالعته- أيده الله- وعندي علىٰ الغيبةِ مساهمةُ الشّاهد، وأرق السّاهر السّاهد، فما تُكْلُهُ ثُكْلُ واحدٍ، إذا سلِمَ سلِمَ الجميع، ومتىٰ ألِمَ فبالكل ألمٌ وجيعٌ"(١).

قوله: (فما تُكْلُهُ ثُكْلُ واحدٍ) من قول عبدة بن الطبيب: (من الطويل)

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلكُ واحدٍ ولكنّهُ بنيانُ قومٍ تهدَّما(٢)

وهو يوحي بأثر فقد هذا الابن ومنزلته عند أبيه، فلحزنه يحزن الجميع، ولألمه يتألم كل من حوله، وهذا يشف عن مكانة المعزَّىٰ بين قومه وعلو قدره، والكاتب هنا حلّ مضمون البيت في نثره، وجاء معناه موافقا لغرضه في الرسالة، وقد استطاع أن يكشف عن قيمة هذا التراث الشعري حين استدعاه في نثره ووظفه توظيفا فنيا يشد من أزر الفكرة، ويقوي المعنىٰ، ويتلاحم مع غرضه.

وقول ابن مغاور: "وليسلّك – أدام الله عزك- أنها تكونت في صدفكِ، ونشأتْ في كنفكَ.... إلىٰ أن اختار الله تعالىٰ لها ما عندَه، وأنجز الموتُ الذي لا محيص عنه فيها وعده"(٣). من قول الأعمىٰ التطيلي: (من البسيط)

يا ماجداً أنجزَ العلياءَ مَوْعِدَها اليومَ أنجز فيكَ الموتُ ما وعدا(٤)

---

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٩٧.

(٢) شعر عبْدة بن الطبيب، جمعه: د.يحيىٰ الجبوري، ص٨٨، دار التربية للنشر، بغداد،١٣٩١ه-١٩٧١م.

(٣) ابن مغاور الشاطبي: ص٢٢٦، ٢٢٧ .

(٤) ديوان الأعمىٰ التطيلي، تحقيق: محيي الدين ديب، ص٥٧، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان ٢٠١٤م.

وهو يكشف عن أن الموت حق، وأن كل حي سيموت، قال تعالىٰ:﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ (١) فكلنا علىٰ موعد مع الموت، وفي انتظار هذا الموعد:﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٢)، وقد استفاد الكاتب من عجز البيت، وحله بلفظه ومعناه، وواضح أن الحل هنا جاء متسقا مع رسالته متوائما معها، وجاء في صورة محكمة تكشف عن براعته وحسن توظيفه له.

إن حل الشعر دليل مقدرة الكاتب وبراعته الأدبية؛ قيل للعتابي يوما: "بماذا قدرت علىٰ البلاغة؟ فقال: بحل معقود الكلام"(٣). فالشعر-كما يقول ابن طباطبا- رسائل معقودة، والرسائل شعر محلول"(٤).

سادسا - السهولة والوضوح

تبدو هذه الظاهرة واضحة جلية في هذه الرسائل؛ إذ يعز علينا أن نجد ألفاظا حوشية، أو عبارات معقدة، أو أساليب ملتوية، وهذا إن دل فإنما يدل علىٰ رقة الألفاظ وسلامتها، ووضوح الأسلوب وسهولته، وبعده عن الإبهام والغموض.

---

(١) سورة القصص: من الآية (٨٨).

(٢) سورة الأعراف: من الآية (٣٤).

(٣) عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي، تحقيق:د.عبد العزيز بن ناصر المانع ص١٢٧، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

(٤) السابق: ص١٢٧. وينظر نماذج أخرىٰ لحل المنظوم- وهي كثيرة: الذخيرة: ٣/ ٧٩٩، قلائد العقيان: ٢/ ٦٦٣، رسائل ابن أبي الخصال: ص ٩٦، ٤١٩.

إن الكاتب في مثل هذا الموقف لا يقف ليتكلف في أسلوبه أو ينتقي ألفاظا بعينها، وإنما يعبر عما في نفسه في يسر وسهولة، ومن نماذج ذلك قول أبي عمر الباجي: "كتابي عن نفسٍ مستطارةٍ بلوعتِها، وكبدٍ مُذابة بروعتها، وعن قلب شعارُهُ بَرْحُ الجوىٰ، وأعشارُهُ نهْبُ الأسَىٰ، تفجُّعًا لما فجعكَ، واشتراكًا في عظيم المصابِ معكَ، وأسفًا علىٰ من فقناه فقدان السمع والبصرِ، ورُمِينا فيه بأفظع الحوادثِ والغِير، فإنا لله وإنا إليه راجعون، بها يعتصم العارفون، وإلىٰ حقيقتها يرجعُ المسلمون"(١).

إن الألفاظ هنا سهلة، واضحة، لا غموض فيها ولا التواء، ومع سهولتها فهي قوية، سليمة، غير مبتذلة، وهي تكشف عن شدة النازلة، وفداحة الرزء، وأثر وقوعه علىٰ النفس، وتؤكد علىٰ حزن الكاتب وأسفه لما حل بصاحبه، وفيها دعوة واضحة إلىٰ التسليم والتفويض.

والسبب في رقة الألفاظ وسهولتها يرجع إلىٰ طبيعة الموضوع، فموضوع هذه الرسائل يدور حول التعزية وذكر الموت، والتحلي بالصبر، والرضا بقضاء الله تعالىٰ، والدعاء للمتوفَّىٰ ولصاحب المصاب، وهذا كله لا يستدعي ألفاظا معقدة أو أساليب ملتوية، والكاتب هنا في مقام التعزية، فلا يجد أمامه إلا أن يعبر عما نفسه، وما تمور به أحاسيسه بألفاظ وعبارات واضحة، تتواءم ومقام التعزية. وهو أيضا من باب التخفيف علىٰ صاحب المصيبة. والنماذج كثيرة تؤكد علىٰ ذلك، ولا داعي لتكرارها.

(١) الذخيرة: ٢/ ١/ ١٩٠.

سابعا - الألوان البديعية

سلك النثر الفني في الأندلس خطا يكاد يشبه الخط الذي سار عليه النثر المشرقي، فقد كان في أولىٰ مراحله أقرب ما يكون إلىٰ البساطة والبعد عن التعقيد، ثم اتسم بعد ذلك بالميل إلىٰ الإطناب، والتفنن في الأساليب، والمراوحة بين السجع والازدواج، ثم تطور النثر ودخل مرحلة الصناعة والزخرفة اللفظية من سجع وجناس وطباق وغيرها من ألوان البديع التي شاعت عند كتاب القرن الرابع الهجري ومنْ بعدَهم، وظهر ذلك جليا في كتب التراجم، كالذخيرة لابن بسام، وقلائد العقيان، ومطمح الأنفس لابن خاقان، فهذه الكتب تعد مثالا حيا لهذا النثر الحافل بمظاهر التوشية والبديع، ثم دخل النثر الأندلسي بعد ذلك مرحلة التكلف والإسراف في الصناعة، وحفل بضروب المحسنات البديعية، وهذه الفترة أشبه ما تكون بمدرسة القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني في النثر المشرقي وظلت هي المسيطرة – غالبا- علىٰ نثر الكتاب حتىٰ نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس[1].

والألوان البديعية من الظواهر الأسلوبية البارزة في هذه الرسائل، إذ نجد الكتاب قد استعانوا بها لإضفاء نوع من الجمال الفني علىٰ الأسلوب، وتحسين العبارة، وزيادة التنغيم الموسيقي، وهي دليل ثراء اللغة واتساعها، سيما إذا كانت قليلة، عفوية بعيدة عن التكلف، تلائم المعنىٰ، وترسخ الفكرة.

(١) ينظر:أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي حياته وآثاره: ص١٨٠ ،١٨١ ،٢٢٠ .

ومن الألوان البديعية التي برزت في هذه الرسائل بروزا واضحا: السجع؛ إذ استعمله الكتاب واعتمدوا عليه في تصويرهم، ومن النماذج الذي أدىٰ فيها السجع دورا مهما في إيضاح المعنىٰ، وتأكيد الفكرة قول ابن أبي الخصال: "وإذْ لا سبيلَ إلىٰ الخلودِ، ولا مذهبَ عن تعثير الجُدودِ، وتعفيرِ الخدودِ، فأحق من عرفَ الله تعالىٰ- حقهُ، وعصَىٰ داعيَ الجزعِ وعقّهُ، من استعبَدَ هواهُ واسترقّهُ، وباء باسم الإمامة واستحقَّه، أما إنهُ وعدٌ صادق، وإنه الآخر بالأول لاحق"(١).

إن موت الأبناء هو الفجيعة الموجعة، والخطب الجلل الذي يأسىٰ له قلب الشجاع، ويشعل في القلوب نار الألم والحزن، لكن الموت حق، ومن عرف ذلك فلا يجزع، وعليه أن يصبر ويحتسب. وقد راح الكاتب عن طريق السجع يشبع هذه الفكرة ويجليها، فالسجع الواقع بين الفواصل:(الخلود/ الجدود/ الخدود)- فضلا عما بينها من جناس ناقص-، و(صادق/ لاحق) يؤكد علىٰ حتمية الموت للأول والآخر، فليس في الدنيا خلود لأحد، وإنما مآلها إلىٰ الزوال والانتهاء، والفواصل:(حقه/ عقه/ استرقه/ استحقه)، تكشف أن الحزن لا طائل من ورائه، وأن الجزع لا يحيي ميْتا، فالأولىٰ بالمصاب الصبر والاحتساب. وقد استطاع الكاتب عن طريق السجع أن يحيط بالمعنىٰ الذي أراده، ويثبت الفكرة التي يرومها، ويحقق الغرض الذي يسعىٰ إليه.

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٩٤ .

والطباق بين(الآخر/ الأول) يؤكد علىٰ حقيقة الموت، وأنه سنة الله في الأولين والآخرين،فعلىٰ العاقل أن يعتبر ويستعد له،فمهما طال به العمر فهو عما قريب يموت.

ويأتي الجناس ضمن الألوان البديعية التي تنتشر في هذه الرسائل. ومن النماذج التي اعتمد فيها الكاتب علىٰ الجناس في إبراز معانيه وتأكيدها قول ابن خطاب: "فكتب العبد... وقد بلغه الخطب الذي أودع كل قلبٍ حُزْنًا، وصيَّر سبيلَ العزاءِ حَزْنًا، وهو وفاة ابنكم... مضىٰ والله زينُ المحافلِ والجحافلِ، وأصيبتْ المكارهُ بالقائل لها والفاعل، هوىٰ به من سماءِ المجدِ نجمٌ، وثوَىٰ في الثَّرىٰ منه نائلٌ وحزْمٌ، وظهرَ من سكونهِ في فعلِ الرجاءِ حزمٌ، فالعيونُ تجودُ، والقلوبُ تَجِدُّ، والنفوسُ تحومُ عن موردِ الصبرِ فتُرَدُّ ولا تَرِدُ، وما أجدرَ هذا المصابِ أن يكونَ للعزاءِ غالبًا، وللجزعِ جالبًا، وما أعظمَها رزيةً سُلبتْ لها الألبابُ، وأوجبَ بها علىٰ العيونِ الانسكابُ، وعلىٰ القلوبِ الاكتئابُ"(١).

الجناس التام بين:(حُزْنًا) وهو الحزن والألم و(حَزْنًا) وهو الصعب الشديد، يؤكد علىٰ خطر الموقف، وشدة النازلة، وبين (حزم) الأولىٰ بمعنىٰ التبصر في عواقب الأمور، والتدبر في نتائجها، و(حزم) الثانية بمعنىٰ الشدة والقوة والإِحْكام، له دوره المؤثر في رسم صورة هذا الابن، والكشف عن طباعه وصفاته، فهو يكشف عن عقله الراجح وحسن تدبيره للأمور.

(١) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٥) سنة ٢٠٠٥م، المغرب. ملحق برسائل الغرب الإسلامي تتمة، ص ١٤٩. النائل: الكريم السخي.

والجناس الناقص بين: (نجم/ حزم) يكشف عن علو قدره ومنزلته بين قومه، ويوحي بالحزن والألم علىٰ فقده. والجناس الواقع بين:(تجود/ تجد)،(تُرَدُّ/ تَرِد)،(غالبًا/ جالبًا)، (الألباب/ الانسكاب/ الاكتئاب) فضلا عما بينها من السجع، يكشف عن خطر مصيبة الموت، وشدتها، وأثر وقعها علىٰ النفوس، وتأثيرها في القلوب، فهي التي تبعث علىٰ الحزن والجزع، وتوجب العزاء والسلو.

إن الجناس هنا يكشف عما في نفس الكاتب من حزن وألم، ويؤكد علىٰ تأثره بما أصاب المعزَّىٰ، وقد أدىٰ دوره في الكشف عن طباع الابن المتوفَّىٰ وصفاته، ويوحي بسمو منزلته، وعلو قدره، ويشف عن أخلاقه، وسماته وشمائله، وقد جاء طيعا مناسبا، وأكد المعنىٰ وزاده وضوحا، وأضفىٰ علي أسلوب الكاتب بهاء وجمالا، وموسيقىٰ وإيقاعا.

والطباق من الألوان المعنوية التي اتكأ عليها الكتاب في هذه الرسائل؛ فله دوره المؤثر في الكشف عن المعنىٰ، وإبراز الصورة بما يحدثه من الضدية التي تقع بين الألفاظ، فتثير القارئ وتفاجئه، وتجذب انتباهه، ومن نماذجه قول ابن مغاور: "أطال الله بقاءك، راضيا مسلما، سرك القدر أو ساءك، لا يحل الخطب حبوتك... ففيم يضيق صدرك الواسع، ولم لا يدنو أملك القصي الشاسع، والله أعطىٰ ووهب، ثم ابتلىٰ فأنهب وأذهب، وأعار وأمتع، ثم استرد واسترجع، منح منحة سماها بنتا، أنَّس بها وقتا، ثم سلط عليها آفة تسمىٰ موتا"(١).

(١) ابن مغاور الشاطبي ص ٢٢٦ .

الله سبحانه هو الذي يعطي ويمنع، ويَهِبُ وينزع، ويحيي ويميت، ويبتلي عباده ليمحصهم، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا، وقد بسط الكاتب فكرته هذه مستعينا بالطباق بين:(سرك/ ساءك)،(يضيق/ الواسع)، (يدنو/ القصي)،(أعطىٰ ووهب/ أنهب وأذهب)،(أعار وأمتع/ استرد واسترجع) ليؤكد أن الأوْلىٰ بالمرء الصبر والتفويض، والرضا والتسليم، واحتساب الأجر عنده سبحانه، فالأمر كله بيده، فهو الواهب وهو المانع، وهو المحيي وهو المميت.

وواضح أن التقابل هنا إلىٰ جانب كونه حلية لفظية قد أدىٰ دوره في ترسيخ المعنىٰ الذي أراده الكاتب، وترسيخ الفكرة في ذهن المتلقي، وهي التسليم والرضا بقضاء الله – تعالىٰ- والحض علىٰ الصبر والاحتساب، سيما إذا علم المصاب أن الأمر كله بيد الله، وأن الموت واقع علىٰ كل حي(١).

إن اللون البديعي في هذه الرسائل ليس حلية فحسب، وإنّما يُعد- بجانب ذلك- لبنة فنية تتآزر مع غيرها من لبنات العمل الفني لتزيد المعنىٰ جلاءً ووضوحًا، والفكرة قوة ورسوخًا، وتضفىٰ علىٰ الأسلوب رونقا وجمالا. والنماذج كثيرة، تؤكد استعانة الكتاب باللون البديعي في التعبير عن معانيهم، وترسيخ أفكارهم.

(١) ينظر نماذج أخرىٰ للطباق: الذخيرة ٣/ ١/ ٨٠، ٨١، أبو المطرف أحمد بن عميرة: ص٢٠٧، رسائل ابن أبي الخصال: ص٩٤.

ثامنا - تصوير مصيبة الموت

إن فقد الأبناء أمر عظيم، وهـمّ مقيم، وغصة في القلب لا تستساغ، وحرقة بين الجوانح لا تندمل، وشعور بالغربة والوحشة لا يؤنسه إلا الصبر والاحتساب والرضا بقضاء الله- تعالىٰ- وقدره. وقد صور الكتاب مصيبة الموت فأكدوا علىٰ خطرها، وكشفوا عن وقعها الشديد علىٰ النفس، ومن نماذج ذلك قول أبي عمر الباجي: "أيُّ رزءٍ ما أفظعه في القلوب، وأيّ خطبٍ ما أشنعه في الخطوب، وأي مصابٍ ما أحقه بالأسَىٰ، ونبذِ الأُسَىٰ، لولا أمر الله تعالىٰ، ولا أجد- أيدك الله- لهذهِ الفادحة قدْرًا، ولا أقيسُ بها أمرًا، ولا أكاد أقول في مثلها صبرًا، فإنها سالبةُ الأذهانِ، وجامعةُ الأحزانِ، وخبيثةُ الحدثانِ، وكبيرةُ نوائب الزمانِ"(١).

إن رزء الموت يقصم الظهور، ويميت القلوب، ويذيب الأكباد، سيما إذا كان الفقيد هو الابن المرتجىٰ لأبيه، وزهرة حياته، وأمله فيها، فالوقع أشد وآكد، والجرح أوقع وأنكىٰ، والرزية أدهىٰ وأمر. وقد راح الكاتب في تصويره يشبع هذه الفكرة ويحاول أن يبرزها، ليكشف عن فداحة الخطب وشدته.

وإذا كانت للألفاظ إيحاءات ودلالات وظلال بما تحمله من تأثير، وبما تملكه من طاقة تعبيرية ورحابة معنوية غنية الدلالة، وظلال إيحائية مرشدة إلىٰ ما في نفس الكاتب من مشاعر وأحاسيس وخواطر- فالاستفهام (بأي) في قوله: (أي رزء، أي خطب، أي مصاب) يؤكد علىٰ خطر مصيبة الموت، وفداحة هذا الرزء الذي يسلب الأجفان كراها، والأبدان قواها. وأسلوب التعجب(ما أفظعه، ما

(١) الذخيرة ٢/ ١/ ١٨٩. الأسىٰ (بالفتح) المداواه والعلاج، والحزن أيضا، وأسيت علىٰ فلان أسَىٰ: حزنتُ. وأَسِيَ علىٰ مصيبته: حزِنَ. والأُسىٰ (بالضم) الحزن والجزع.

أشنعه) يكشف عن شدة هذه النازلة، وأثرها الموجع الذي يقرح الأكباد، ويلهب الأفئدة.

والمفردات والعبارات:(الفادحة،سالبة الأذهان،جامعة الأحزان،خبيثة الحدثان،كبيرة نوائب الزمان)

والفواصل:(القلوب/ الخطوب)،(الأَسىٰ/ الأُسَىٰ)،(قدرا/ أمرا/ صبرا)، (الأذهان/ الأحزان/ الحدثان/ الزمان) تصور خطر هذا الرزء، وتوحي بفداحته، وتكشف عن أثره، فهو يؤثر علىٰ العقول ويشغلها بالتفكير، ويؤثر علىٰ القلوب بالحزن والأسىٰ، وعلىٰ الأبدان بالوهن والسقم.

ومن ذلك أيضا قول أبي القاسم البلوي مصورا أثر هذه المصيبة: "وقد اتصل بمجلِّكم- حرسَ الله حوْباءَكُم- نبأ الرزءِ المؤلم، والخطب الفادح المدلهم، والحادث الفاجع الذي صدع الفؤادَ، وضعضعَ القلوبَ والأكبادَ، وأوهنَ قُوىٰ التجلّد، وهاضَ جناح التصبُّر... فأصابَ مُجِلّكم بذلك أعظم مصيب، وخصّه من التوجع له أوفرُ نصيب، وبلغ به الوجدُ كل مبلغ، ونال منه كل منالٍ، وآلمه هذا الحادث أشد إيلامٍ، وانتهىٰ به التأثرُ إلىٰ أبعد غاياته، وأقصىٰ نهاياته"(١).

إن مصيبة الموت عظيم خطرها، جليل أثرها، توجب العزاء لصاحبها، وتبعث علىٰ الحزن والألم، والدمع والجزع، وقد نال من أثرها صاحب

(١) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، عدد(٩) ٢٠٠٩م، المغرب. ذيل علىٰ رسائل موحدية، رسائل في تعازي رجال السلطة. ص١٥٥. مُجِلكُم: أسلوب يخاطب به من هم دون منصب الخلافة.

المصاب بأوفر نصيب وأشده، وآلمه وقعها حتىٰ بلغ التوجع غاياته، والتألم أقصىٰ نهاياته، فالدموع مسفوحة، والنفوس قلقة حائرة، والقلوب جازعة مجروحة، والأكباد ذائبة مقروحة، والعزائم ضعيفة خائرة، من شدة وقع هذه الرزية المؤلم علىٰ النفس.

والصياغة التي صاغ بها الكاتب تجربته تؤكد أثر هذه المصيبة في النفوس:(الرزء المؤلم، الفادح، المدلهم، الحادث الفاجع، صدع الفؤاد، ضعضع الأكباد، أوهن القوىٰ، هاض الجناح، أعظم مصيب، الوجد، نال منه، آلمه أشد إيلام، تأثر به) وهي تكشف عن خطر مصيبة الموت، وشدته وفداحته، كما تكشف عن تأثر الكاتب بما حل بالمعزَّىٰ، وتألمه لما أصابه، ذلك أنه يقدر خطرها، وشدة وقعها.

إن حسن اختيار الكاتب للغة التي تمتلك القدرة علىٰ الإيحاء والتأثير، وتتسم بالإيقاعية الموسيقية،والظلال والدلالات المعنوية، والإيحاءات الفياضة مما يثري المعنىٰ، ويكشف عن جمال الصورة ويوضحها(١)، والكلمة هنا هي التي رسمت صورة الموت وبينت خطره وأثره، وأوحت بشدته وضراوته، وكشفت عن تأثيره في النفوس والنيل منها.

(١) ينظر: محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة: د. صابر عبد الدايم ص ٢٠٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م.

تاسعا - التشخيص والتجسيد

من الوسائل التصويرية التي تضفي علىٰ تصوير الكاتب الحركة والحيوية، وتبعث فيه الحياة، وتزيد المعنىٰ وضوحا، والفكرة رسوخا: التشخيص والتجسيد، حيث نرىٰ- في هذه الرسائل- القدر يسر ويسيء. والجزع يميت القلوب، ويؤثر في الأبدان. والدهر يفرق، ويشتت. والموت ينهب، ويقتل، ويُبكي، ويصرم الآمال. والدنيا تفرق، وتبدل، وتغير. والمصيبة تقرح الأكباد، وتوهن الأعضاد. والرزية تسلب الألباب، والأنباء موحشة، مظلمة، والأخبار تجرح وتؤلم....الخ.

وتتجلىٰ أهمية الصورة في تجسيد المعنويات، وتقريب المعنىٰ وتوضيحه، وتمكينه في ذهن المتلقي، فضلا عن التأثير القوي فيه(١). لذا كان التشخيص والتجسيد من وسائل التصوير المهمة الكاشفة للمعنىٰ، المؤكدة للفكرة، الباعثة في التصوير الحركة والحيوية والإثارة، والمتعة الفنية.

من نماذج التشخيص قول ابن عميرة: "وردت الرقعةُ الناكئةُ قرح الكمد، الناكثةُ عقد الجلد، المذريةُ دمع الشئون، الموريةُ زَنْدَ الشجون، بالمصاب في الولد الذاهب، والابن الحميد المذاهب، والمرجَّىٰ أن ينظره أجل، ويمتد فيه أمل، ويرقىٰ بخصال ترقيه، ويبقىٰ مع من يبقيه، فشاء الله أن يكون المستبقي فرَطًا، والمغتبط به معتبطًا"(٢).

(١) ينظر: فن الشعر: د.إحسان عباس، ص ١٩٣، دار صادر، بيروت ١٩٩٦م.

(٢) أبو المطرف أحمد بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره: ص ٢٠٧ .

شخص الكاتب (الرقعة) وجعلها حية، فهي (تنكئ الجرح، وتنكث العقد، وتزري بالدموع..)، هذا التشخيص منح الصورة قدرا من التأثير والحركة، وله أثره البيّن في الكشف عن التجربة، وصبغها بالحيوية والثراء الفني، وهو يصور أثر هذا الرزء، وفداحة موت الأبناء في نفوس آبائهم، فالابن رجاء أبيه في الدنيا، وأمله فيها، كما يؤكد علىٰ حزن الكاتب الواضح وأثر هذه المصيبة في نفسه، ويكشف عن رغبته في التسلية عن صاحب المصيبة والتخفيف عنه(١).

ومن نماذج التجسيد قول أبي عمر الباجي: "وقد أذهلتني فجأةُ الخطبِ، وتركتني طائر القلبِ واللبِ، وقد رماني ساعدُ الزمان حين رماك، وأصماني سهمُه كما أصماك، وثارت إلي فجائعه من حيث ثارت إليك، ودارت علي وقائعه من حيث دارت عليك، ولو كان ما طالعني خطرة حلم، لكفَىٰ به داعية بثٍّ وألمٍ، فكيف إذا كان يقينًا يقطعُ أملَ المؤملِ، ويبطلُ رجاءَ المرتجىٰ المتعلل"(٢).

جسد الكاتب (الزمان) وجعله محسوسا، فله ساعد يرمي به، وهو يصم الإنسان بسهامه، ويصيب الناس بفجائعه ووقائعه، والكاتب حريص علىٰ مشاركة صاحبه في حزنه وألمه، ويحاول أن يخفف عنه من فداحة الرزء وشدة المصيبة، لذا يؤكد له أن ما أصابه قد نال منه، فتألم لمصَابِه وحزن لما أصابه.

(١) ينظر نماذج أخرىٰ: الذخيرة: ٢/ ١/ ١٨٩، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٥) سنة ٢٠٠٥م، المغرب، ملحق برسائل الغرب الإسلامي، تتمة، ص١٤٩، ١٥٠.

(٢) الذخيرة : ٢/ ١/ ١٨٩ .

والتجسيد هنا يكشف عن هول الموقف، وشدة الرزء، وخطر المصاب، ويشف عن أثر النازلة في نفس صاحبه، ويشي بحزنه وألمه، كما يوحي بحزن الكاتب وتألمه لمصاب أخيه، ومشاركته له في مصيبته، ومحاولته تسليته والتخفيف عنه ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا(١).

إنني أجد الصورة- بفعل التشخيص والتجسيد- ثرية تتحرك، وتعج بالحياة، وينبعث من خلالها شدة الموقف، وخطر النازلة، وشدة وقعها علىٰ المُصابِ، وهي صورة جميلة تخاطب الحس، وتلهب الوجدان، وتعمق الفكرة نحو متلقيها، وتبعث في نفس المعزَّىٰ السلو والرضا، وتشف عن براعة الكاتب ودقته في الوصف والتصوير.

عاشرا - العاطفة

لا نستطيع أن نجزم بصدق عاطفة الكتاب الذين يدبجون رسائلهم في تعزية ابن الخليفة أو من في منزلتهِ، فقد يكون ذلك من باب الواجب الذي لا بد منه، فالرسالة حينئذ ما هي إلا رسم متبع أشبه بالرسالة الديوانية، وهي-غالبا- تكون خالية من المشاعر الصادقة والتعاطف الإنساني لما حل بالمُصَاب(٢).

(١) ينظر نماذج أخرىٰ للتجسيد: ابن مغاور الشاطبي: ص ٢٢٦، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، عدد (٩) ٢٠٠٩م، ذيل علىٰ رسائل موحدية، رسائل في تعازي رجال السلطة، ص١٥٥.

(٢) ينظر-علىٰ سبيل المثال: الذخيرة ٢/ ١/ ١٨٩، ابن مغاور الشاطبي: ص ٢٢٦.

أما تلك الرسائل التي دبجت في تعزية صديق أو حبيب أو قريب أو غير ذلك، فالعاطفة فيها– غالبا– صادقة، إذ يغلب عليها صدق الأحاسيس، وعمق المشاعر، وبروز روح الأخوة والمودة والتعاطف لما حل بالمصاب(١).

والعاطفة هي الانفعال والإحساس بالموقف الذي يعالجه الكاتب، ولها أهميتها في العمل الأدبي، وأهم مقاييسها أن تكون صادقة غير مفتعلة، والصدق هنا مقصود به الصدق الفني، ويتحقق لها ذلك عندما "تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع، حتىٰ تكون عميقة تهَبُ للأدب قيمةً خالدة"(٢).

وقد تحقق لهذه الرسائل صدق العاطفة، فجاءت التجربة معبرة عن شعور الكاتب وأحاسيسه، كاشفة عن شعوره نحو صاحبه، بدا ذلك جليا في كل أجزاء الرسالة حتىٰ نهايتها، حيث نجد فوران الفؤاد، وحرارة الانفعال بالموقف، وقوة الشعور، وصدق الإحساس بمرارة فقد الأبناء وأثر ذلك علىٰ النفس، تنطق به أجزاء الرسالة.

والدليل علىٰ صدق العاطفة وقوتها لدىٰ هؤلاء الكتاب: إحساس المتلقي بمشاعر الحزن والألم ومرارة الفقد بين جنبات هذه الرسائل، وشعوره بما يشعر به الكاتب من التألم لمصاب إخوانه وما حل بهم من آثار هذا الرزء الجسيم، "وقوة العاطفة إنما تتضح بمقدار انفعال المتلقي وتأثيرها في نفسه، فإذا حرك

(١) ينظر–علىٰ سبيل المثال: رسائل ابن أبي الخصال: ص٥٦ ، ٩٣، ٤١٧، صبح الأعشىٰ: ٩/ ٨٥، أبو المطرف أحمد ابن عميرة المخزومي: ص ٢٠٧.

(٢)أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، ص١٩٠، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، العاشرة ١٩٩٤م.

النص عواطف القارئ وأثار مشاعره كان صادق العاطفة قوي الشعور، فالأديب لكي يثير شعور القارئ أو السامع يجب أن يكون هو قوي الشعور في أدبه"[1]. وهذا ما وجدناه في هذه الرسائل، فهي تفيض بقوة الشعور، وعمق المشاعر، وصدق الأحاسيس، والسمو بالتجربة إلىٰ أعلىٰ درجاتها الفنية.

(١)في النقد الأدبي:د.عبد العزيز عتيق،ص١١٢، دار النهضة العربية، بيروت١٩٧٢م. بتصرف.

الفصل الرابع : الخصائص والقيمة

اتسمت هذه الرسائل بسمات وخصائص ميزتها من غيرها، وأضفت عليها قيمة فوق قيمتها، وذلك راجع لطبيعة الموضوع التي تعالجه، والفكرة التي تسعىٰ لإبرازها، والتجربة الشعورية التي تستوعبها.

أولا- بروز الاتجاه الوعظي

ويظهر ذلك جليا في ذم الدنيا والتحذير منها، وعدم التعلق بها، والتأكيد علىٰ زوالها، والاستعداد للموت، والتفكير في هذا المصير المحتوم، والدعوة إلىٰ الصبر والتسليم، والرضا بقضاء الله- تعالىٰ- وقدره، ونبذ الجزع، والتأسي برسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- في مثل هذا الموقف.

ومن نماذج ذلك قول أبي عمر الباجي: "ونحن مأمورٌ فينا، ومحكومٌ علينا، يملكنا خيرُ المالكين، ويحكمُ فينا أعدلُ الحاكمين، ولو شاءَ الله لم يخلقْنا، فضلا عمن خلق منا ولنا، وقد أنعم الله عليكَ بنعمىٰ متعكَ بها ما شاء، ثم صنعَ في بعضٍ ما شاءَ، فإن تُقابِلْ بالاحتسابِ قدَرَهُ النازلَ، وبالتفويضِ قضاءَهُ العادلَ، فأحْرِ بحزنْكَ أن يعود سرورا، وبصَدْعِكَ أن يكون بثواب الله مجبورا"(١).

إن الأمر كله بيد الله سبحانه، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، سبحانه له الخلق والأمر، فيجب علىٰ المصاب الرضا والتسليم، وهذه النزعة الوعظية نابعة من تأثر الكاتب بهذا الموقف الجلل، وقد اتخذها سبيلا لمواساة المعزَّىٰ، وحضه علىٰ التسليم لأمر الله تعالىٰ وقضائه: "فإن تُقابِلْ بالاحتسابِ قدَرَهُ

(١) الذخيرة: ٢/ ١/ ١٨٩.

النازلَ، وبالتفويضِ قضاءَهُ العادلَ، فأحْرِ بحزنْكَ أن يعود سرورا، وبصَدْعِكَ أن يكون بثواب الله مجبورا"، أكد على ذلك التقابل بين (حزنك/ سرورا)،(صدعك/ مجبورا) وهو من شأنه أن يبرز المعنىٰ، ويرسخ الفكرة، ويشيع في النص الحيوية.

وقد فاضت هذه النزعة الوعظية بهذه التعابير: (مأمور فينا، محكوم علينا، يملكنا خير المالكين، ويحكم فينا أعدل الحاكمين، الاحتساب، التفويض، قضاءه العادل) وهي تشف عن عمق الشعور، وصدق الإحساس، وقوة الانفعال بالموقف، وصدق التجربة، وتكشف عن روح إيمانية تسري في النص.

ومن ذلك أيضا قول أبي القاسم البلوي: "ويا لها من مصيبة ما أوجَعَها، وأقرَنَ القلوب بها وأفجَعَها...ولكن الصبرَ مأمور به، والأجرَ مربوط بسببه، والمصيبة برسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- عزّت الناسَ في مصائبهم بعده، فقدُه -عليه السلام- هوّنَ ذهاب كلُّ محبوبٍ شريف وفقدُه، فإنَّا لِلَّهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ، تسليمًا وتفويضًا"[1].

إنها دعوة واضحة إلىٰ الصبر علىٰ هذا الرزء، والحض علىٰ الحمد والاسترجاع، والرضا بقضاء الله وقدره، تأدبا مع الله -تعالىٰ- وتأسيا برسوله- صلىٰ الله عليه وسلم-، وقد انعكست آثار تلك الدعوة الوعظية علىٰ التعبير

(١) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٩) ٢٠٠٩م، المغرب، ذيل علىٰ رسائل موحدية (رسائل في تعازي رجال السلطة) د. أحمد العزاوي ص١٦٣، وينظر نماذج أخرىٰ ابن مغاور الشاطبي: ص ٢٢٧، صبح الأعشىٰ ٩/ ٨٥، ٨٦.

والتفكير والتصوير، إذ نجد الألفاظ والتراكيب التي تؤكد هذه النزعة وتشف عن دعوة الكتاب إلىٰ الصبر والتأسي بالرسول الكريم -صلىٰ الله عليه وسلم- :(الصبر مأمور به، الأجر مربوط بسببه، إن لله وإنا إليه راجعون، تسليما وتفويضا) وهدف الكاتب هو التخفيف علىٰ صاحبه، وإخماد لوعته، وتسكين زفرته، وتنفيس كربته، وتسليته ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا.

ثانيا- نزعة التأمل

برزت النزعة التأملية في تأمل الكتاب في حقيقة الموت والحياة، فالحياة لا شك فانية، والموت آت لا محالة، فعلىٰ كل ذي لب أن لا يغتر بها، وأن يتخذ منها معبرا إلىٰ الآخرة، فمهما طال به العمر سيرحل عنها ليلقىٰ الموت الذي لا يتقدم ولا يتأخر عنه ساعة:**{فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}**(١)، وقد أشرت إلىٰ ذلك سابقا. ومن نماذج التأمل في حقيقة الدنيا قول ابن طاهر: "الدنيا- صرف الله عنك صروفها- علىٰ الفجائعِ مبنية، وقصَاراها كدَرٌ أو منيَّة، وإن الحازمَ من وطَّنَ لأحداثِها، وأيقنَ بانتكائِها، فأوسعَها صدرًا رحِيبًا، وقلبًا صليبًا"(٢).

الدنيا مبنية علىٰ النوائب، فلا حيلة للمرء أمام غرورها، واطراد سننها في تكدير صفوه وتنغيص عيشه، وعلىٰ العاقل أن يوطن نفسه علىٰ مصائبها فلا تغره

(١) سورة الأعراف: من الآية (٣٤).

(٢) الذخيرة: ٣/ ١/ ٧٨ .

زينتها، ولا يفرح بعطائها، فهي دار اختبار وبلاء، وليست دار مقام وهناء، فالافتتان بها لا قيمة له ما دامت نهايتها الفناء.

وقد أدت المفردة دورها لتؤكد علىٰ حقيقة الدنيا، فالكلمات: (صروفها، الفجائع، كدر، منية، أحداثها، انتكائها) توحي بأن هذه طبيعتها، فهي حتما تصيب المرء بنوائبها، وعليه أن يوطن نفسه ويرضىٰ بها علىٰ حالها، وأن ينتظر الموت بصدر رحب ونفس راضية مطمئنة لقضاء الله- تعالىٰ- وقدره، "فيوسعها صدرا رحيبا".

ومن نماذج التأمل في الموت والحياة قول أبي القاسم البلوي: "فيا لها من مصيبة ما أبكاها للعيونِ، وأشجاها للقلوبِ، فإنا لله وإنا إليهِ راجعون، وتلكم- أدام الله عافيتكم- عادةُ الأيام في بنيها، وسبيلُها التي سلك الأولون ويسلُك الآخرون فيها، لا يُقبلُ فداء، ولا يُجدي بكاء، ومن صحب الأيام ذكرته بمواعظها، ووعظته بحادثِها، وإذا كان الحِمَامُ غايةَ كل موجود ذي رُوح، ونهايةَ كل حي من المخلوقينَ يغدو ويروح، فإلىٰ الصبر علىٰ كل حال مفزعُ اللبيب، ومرجعُ الأريب"[1].

حكم نابعة من تأملات الكاتب في الموت والحياة، والوقوف علىٰ حقيقتهما، فالأيام متقلبة، والدنيا بما فيها هالكة، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور، وكل متحرك غايته سكون، فلا سبيل إلىٰ الخلود، قَدَرُ الله وقضاؤه في

(١) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، عدد (٩) ٢٠٠٩م، المغرب. ذيل علىٰ رسائل موحدية، رسائل في تعازي رجال السلطة. ص١٥٤.

الأولين والآخرين، علىٰ ذلك جرت سنته، ونفذت مشيئته، أما إنه وعد صادق، وإن الآخر بالأول لابد لاحق، ومن عرف ذلك فلا يحزن، ولا يجزع، فالصبر والاحتساب رجاء جزاء الصابرين المحتسبين أولىٰ ثم أولىٰ.

إن طول التفكير والتأمل في حقيقة الموت والحياة من حسنات هذه الرسائل، وخصائصها المميزة، وهو يكشف عن النوازع الداخلية التي تمور في نفس الكاتب، وتصبغ تجربته بالأناة، وتغلف صوره بالعمق، وقد وجدنا في هذه الرسائل امتزاج العاطفة مع الفكرة، والمشاعر والأحاسيس مع التأمل، في عاطفة قوية وأحاسيس فياضة، تنبئ عن انفعال الكاتب الحقيقي بالتجربة، وإحساسه الصادق بالموقف الذي يعالجه.

ثالثا – نزعة الحزن

بدت نزعة الحزن واضحة في هذا النوع من الرسائل، فلها وجود بيّن، وأثر بارز، وحركة واضحة تسري في أفكارها ومعانيها، بل في ألفاظها، حيث نجد حرارة الانفعال بالموقف وقوة الشعور، وعمق الإحساس بجلال هذا الخطب وعظمته ومدىٰ تأثيره علىٰ النفس البشرية، إذ نجد الكتاب قد عمدوا إلىٰ صبغ صورهم وأسلوبهم بالآلام والأحزان لتفصح عن المشاركة الوجدانية للمصاب، وتكشف عن مدىٰ مشاركتهم له في مصيبته، فالحزن والأسىٰ، والتألم، ومرارة الفقد صبغت تعبيرات الكاتب، وغلفت معانيه وأفكاره، ولفَّت صوره بالألوان القاتمة، وقد أحس المتلقي بمشاعر الألم والحزن بين جنبات هذه الرسائل: شعور صاحب المصيبة وما يعانيه من ألم وحزن، وشعور الكاتب وأسفه لما حل بصاحبه ونزل به.

ومن النماذج التي تفيض أسىٰ ولوعة، وحزنا وألما قول ابن أبي الخصال في التعزية بوفاة ابن أحد الفقهاء: "ونالني من التألُّم بذهابِهِ، وخبوِّ شِهابِهِ، واستسْرار هلالِهِ غِبّ الطّلوع، واختطافِ خيالِهِ من بين الضلوع، ما أيسَرُهُ يُذكي الحُرَقَ، ويُعْدي الأرقَ، وذلك أقلُّ ما يُوجبهُ الاسْتهامُ، ويقْتضيهِ الإنجادُ في حبه والإتْهَامُ، ولئن كان المصابُ به عظيمًا، والخطبُ بفقدانه جسيمًا، فلقد أحسن الله إليه وإلىٰ أبويهِ، بما اختارَهُ له وأوردَهُ عليه، من كرامةِ الأبدِ، ونفاسةِ الجَدِّ الأسعدِ، خِلْوا من الأوزارِ، خالصا لتلك الدارِ، طاهرا من العيوبِ، بريئا من الذنوبِ"[1].

إن صورة الحزن والألم، وما يتبع ذلك من أثر جسمي ونفسي تبدو للمتلقي واضحة جلية، وقد انعكست آثار تلك النزعة علىٰ التعبير والتفكير والتصوير، إذ نجد الألفاظ والتراكيب التي تؤكد هذه النزعة، وتعبر عن حرارة الانفعال، وشدة الموقف، وتشف عن الحزن والألم المسيطر علىٰ الرسالة واضحة جلية: (نالني، التألم، خبو شهابه، يذكي الحرق، يعدي الأرق، المصاب به عظيما، الخطب بفقدانه جسيما) وهي تكشف عن صدر ملتهب، ونفس ملتاعة، وحرقة في القلب لا تنطفئ، ودموع متسربة لا تنقطع، وقلق واضطراب، وألم والتهاب لا يطفئه إلا الرضا والتسليم لأمر الله تعالىٰ وقضائه، والصبر علىٰ هذه المصيبة احتسابا للأجر، فلقد أحسن الله إليه وإلىٰ أبويه، من كرامة الأبد، خِلوا من الأوزار،

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ص ٤١٨ . استسرَّ الهلال آخر الشهر: خفي ودخل في السِّرار(آخر ليالي الشهر القمر). الاستهام: استهم القوم: اقترعوا، كأنه يريد معنىٰ المشاركة.

خالصا لتلك الدار، طاهرا من العيوب، بريئا من الذنوب". وهذا الثواب العظيم الذي أعده الله للصابرين وللمتوفَّىٰ مما يخفف من وطأة المصيبة، ويهون من شدتها علىٰ المصاب(١).

إن الناس لا ينفكونَ من المصائب، ومن لم يثْكُلْ أخَاه ثكلَهُ أخوهُ، ومن لم يعدمْ نفيسًا كان هو المعدوم دون النفيسِ، وحقُّ الإنسانِ الصبرُ علىٰ النوائبِ، إذ كانت الدنيا دارُ فراقٍ، ودار بوارٍ، لا دار استواء، وعلىٰ فراقِ المألوف حرقةٌ لا تُدْفع، ولوعةٌ لا تُرد، وإنما يفاضَلُ الناس بصحةِ الفكرِ، وحسنِ العزاءِ، والرغبةِ في الآخرة، وجميلِ الذكرِ(٢).

رابعا- الترابط والتواؤم

إن قارئ هذه الرسائل يجد تواؤمًا وتناسبًا بين أفكارها ومعانيها، وترابطًا واضحا بين أجزائها، إذ يلفها رابط واحد يهيمن عليها من أولها إلىٰ آخرها هو الحزن والألم، والأسىٰ والشجن من أثر هذا الخطب الذي يدمي القلوب، ويلهب الأكباد ويذيبها، فوقع هذا الرزء الشديد علىٰ النفس وإحساس الكاتب بوقْعِهِ الأليم هو الذي دفعه إلىٰ التعزية، يعضده ويذكيه حزن ملتهب في أعماقه، وحرقة تثور في قلبه، وجوانح ملتاعة، ونفس متألمة لما حل بصاحب المصيبة.

إنني أجد تعبير الكتاب عن أسفهم وحزنهم متىٰ ما علموا بهذه الرزء الجسيم، ثم حديثهم عن الموت وأنه حق علىٰ كل حي، وأن الحياة إلىٰ زوال،

(١) ونزعة الحزن واضحة جلية في هذه الرسائل لا تحتاج إلىٰ تأمل، وفيما ذكرناه كفاية.

(٢) ينظر: الكامل ٤/ ١٤.

يتبعه دعوة إلىٰ الصبر والتسليم والرضا بقضاء الله -تعالىٰ- وقدره، ثم تعبير الكاتب عن حزنه وتألمه لما حل بمن يعزيه، يتبع ذلك ذكر شمائل المتوفىٰ وجليل صفاته، وجميل أوصافه، ثم مناجاة الله- تعالىٰ- والدعاء للابن المتوفىٰ بالجنة ورضا الله سبحانه، ولأهله بأن يجزيهم جزاء الصابرين المحتسبين.

فنجد أن الأفكار والمعاني متحدة متوائمة، والجو العام في الرسالة متماسك مترابط، يشمله جو إيماني، ويلفه حزن عميق، ويذكيه شوق ملتهب، وتألم واضح، وإحساس صادق بوقع هذه المصيبة علىٰ النفس.

كذلك اتسمت هذه الرسائل بالتواؤم العام والتآلف الشامل مع الجو النفسي الذي يحياه الكُتَّاب وهم يعزون إخوانهم، ويعبرون عن حزنهم وأسفهم، هذا الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب عند كتابة رسالة التعزية يتسم برهافة الحس، ورقة الشعور، وصدق الإحساس، والمشاركة الوجدانية الصادقة، وهو يلف الرسالة من أولها إلىٰ آخرها، لذا جاءت هذه الرسائل بمعانيها، وأفكارها، وموضوعاتها، متوائمة مع ذلك الجو النفسي الذي يعيشه الكاتب، ملتحمة به، مفضية في النهاية إلىٰ تعانق الأفكار مع المعاني، وتآزر الشكل مع المضمون، معبرة عن إحساس الكاتب النفسي، والسمو بالتجربة إلىٰ أعلىٰ درجاتها الفنية.

خاتمـــة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم-

وبعد: فقد انتهىٰ البحث إلىٰ النتائج الآتية:

- رأيتُ أن التعزية بالأبناء من أهم أنماط التعزية، وأصدقها عاطفة، وأعمقها تجربة، فالأبناء لآبائهم هم قرة العين، وثمرة الفؤاد، وفلذة الأكباد، وسر بهجتهم وأنسهم، وهم الأمل والرجاء، وزينة الحياة الدنيا، فإذا ماتوا انقطع رجاؤهم، وشملهم الحزن والجزع، فحالهم بين أَنَّةٍ وزفرةٍ، ودمعةٍ وعَبرةٍ، وتململٍ واضطرابٍ، وحزنٍ واكتئابٍ، وحرقةٍ في الصدر والتهاب، وغصةٍ لا تنقطع.
- البناء النفسي والفكري لرسالة التعزية يدور حول عناصر معينة لا يكاد يخرج عنها؛ الهدف منها تسلية المصاب، والتسكين من لوعته وفزعته، وهي: التأمل في الموت والحياة وذم الدنيا والتنفير منها، والتذكير بالآخرة، والتحذير من الجزع، والتأسي بالرسول الكريم- صلىٰ الله عليه وسلم- في مثل هذا الموقف، والدعوة إلىٰ الصبر والتسليم، والرضا بقضاء الله تعالىٰ، وإظهار الكاتب التفجع والحزن علىٰ المتوفَّىٰ، والإشادة بجليل أوصافه، وجميل خصاله، والدعاء بما يناسب المقام، ويتواءم مع الموقف، تهوينا من شأن الرزء، وتسلية لصاحب المصيبة وتخفيفا عنه.
- التنوع في البدء والختام من سمات رسالة التعزية؛ إذ لم يلتزم الكتاب ببداية معينة أو خاتمة بعينها، وإنما نوعوا في البدء والختام، بما يعكس اختلاف الرؤىٰ، وتعدد الأذواق، وهذا التنوع لم يكن الغرض منه مجرد التلوين في الكتابة، وإنما هدف الكتاب من ورائه إلىٰ توظيف عناصر البدء والختام توظيفا فنيا يخدم

المعنىٰ، ويرسخ الفكرة، ويساعد علىٰ إبرازها، بما يقع من المتلقي موقع القبول والتأثير، والإقناع.

- عمد الكتاب إلىٰ الوسائل المتنوعة، وأنماط التصوير المختلفة في التعبير عن أفكارهم، والكشف عن معانيهم، وتصوير مشاعرهم، فاستعانوا بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والاستفهام، ووشحوا رسائلهم بالشعر الذي يناسب الغرض، ويحقق الفكرة، ويقوي من فكرة الرسالة، والألوان البديعية كالسجع والجناس والطباق، والتشخيص والتجسيد، كما استعانوا بالتصوير التقريري الذي يعتمد الألفاظ وما توحي به الكلمات من دلالات، وما تشعه من ظلال وإيحاءات، وغيرها، وقد استطاعوا أن يوظفوا هذه الوسائل في التعبير عن عواطفهم وانفعالاتهم، والكشف عن معانيهم وأفكارهم، بغية تأكيد المعنىٰ وتحقيقه، وإقناع المتلقي والتأثير فيه.
- غلبت علىٰ هذه الرسائل العاطفة الصادقة، والمشاعر الجياشة، فجاءت التجربة معبرة عن شعور الكاتب وأحاسيسه، بدا ذلك جليا في كل أجزاء الرسالة حتىٰ نهايتها، حيث نجد فوران الفؤاد، وحرارة الانفعال بالموقف، وقوة الشعور، والإحساس بمرارة فقد الأبناء وأثر ذلك علىٰ النفس تنطق به أجزاء الرسالة.
- اتسمت هذه الرسائل بميزات وسمات ميزتها من غيرها، منها: بروز الاتجاه الوعظي الذي يتجلىٰ في ذم الدنيا والتحذير منها، والاستعداد للموت، والدعوة إلىٰ الصبر والتسليم، ونبذ الجزع، والتأسي برسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- في مثل هذا الموقف، كما برزت نزعة الحزن التي تلف الرسالة من أولها إلىٰ

آخرها، وتهيمن علىٰ أفكار الكاتب ومعانيه، وتغلف أسلوبه وصوره، كما بدت نزعة التأمل واضحة جلية في الحديث عن حقيقة الموت والحياة.

- وجدت في رسالة التعزية بالأبناء تواؤمًا وتلاؤمًا بين أفكارها ومعانيها وصورها، إذ يلفها رابط واحد يهيمن عليها من أولها إلىٰ آخرها، هو الحزن والألم، والأسىٰ والشجن، وكانت هذه الرسائل بمعانيها وأفكارها وصورها متوائمة مع الجو النفسي الذي يعيشه الكتاب، ملتحمة به، مفضية في النهاية إلىٰ تعانق الأفكار مع المعاني، وتآزر الشكل مع المضمون، معبرة عن شعور الكاتب نحو أخيه في مصابه، والسمو بالتجربة إلىٰ أعلىٰ درجاتها الفنية.

والحمد لله أولا وآخرا،

وصلَّىٰ اللهُ – تعالىٰ – علىٰ سيدنا محمد وآله.

فهرس المراجع

- ابن مغاور الشاطبي حياته وآثاره: تحقيق: د. محمد بن شريفة، مكتبة النجاح، المغرب، الأولىٰ ١٤١٥ه- ١٩٩٤م.
- أبو المُطرِّف أحمد بن عَميرة المخزومي، حياته وآثاره. د: محمد بن شريفة، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٣٨٥هـ- ١٩٦٦م.
- الإحاطة في أخبار غرناطة: لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، الأولىٰ١٣٩٤ه-١٩٧٤م.
- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس: ابن عبد الغفور الكلاعي، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- اختصار القدح المعلىٰ في التاريخ المحلىٰ لابن سعيد الأندلسي، اختصره: محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق: إبراهيم الإبياري، القاهرة ١٩٥٩م.
- أصول النقد الأدبي: أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، العاشرة ١٩٩٤م.
- الأمالي لأبي علي القالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م.
- البيان النبوي، د. محمد رجب البيومي،دار الوفاء بالمنصورة، الثانية ١٤٢٣ه-٢٠٠٢م.
- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨ه-١٩٩٨م.
- التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا: محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: إبراهيم محمد حسن الجمل، طبع نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٣م.
- الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور: ضياء الدين ابن

الأثير، تحقيق: د: مصطفىٰ جواد، د:جميل سعيد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، العراق ١٣٥٧هـ - ١٩٥٦م.

- حلية الأولياء وطبقة الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الأولىٰ ١٤٠٩ه-١٩٨٨م.
- ديوان ابن حمديس، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م.
- ديوان ابن زمرك الأندلسي، تحقيق: محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الأولىٰ ١٩٩٧م.
- ديوان أبي الحسن التهامي، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الربيع، مكتبة المعارف، الرياض ١٤٠٢ه- ١٩٨٢م.
- ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكمي، تحقيق: ايفالد فاغنر، بيروت، ١٣٩٢ه-١٩٧٢م.
- ديوان الأعمىٰ التطيلي، تحقيق: محيي الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان ٢٠١٤م.
- ديوان أوس بن حجر، تحقيق: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، الثالثة ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.
- ديوان بشار بن برد، تحقيق: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الجزائر٢٠٠٧م.
- ديوان الخنساء بشرح ثعلب، تحقيق: د. أنور أبو سويلم، دار عمار، عمان، الأولىٰ ١٤٠٩ه-١٩٨٨م.
- ديوان ديك الجن، تحقيق: أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٣ه-١٩٦٤م.
- ديوان الهذليين، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، الثانية ١٩٩٥م.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسّام الشنتريني (ت٥٤٢هـ)، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م.
- الذيل والتكملة لكتابَي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي، تحقيق:د. محمد بن شريفة، د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت١٩٦٥م.
- الرثاء، د. شوقي ضيف، سلسلة فنون الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، الثالثة ١٩٧٩م.
- رسائل ابن أبي الخصال: تحقيق: د.محمد رضوان الداية، دار الفكر، سورية، الأولىٰ ١٤٠٨ه- ١٩٨٧م.
- رسائل أندلسية، تحقيق: د. فوزي عيسىٰ، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٩م.
- رسائل التعزية في العصر العباسي دراسة تحليلية: د. جمال نصر درويش، أطروحة ماجستير مخطوطة، كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر١٤٢٩-٢٠٠٨م.
- الرسائل في مصر الإسلامية إلىٰ نهاية الدولة الإخشيدية: د. أحمد أمين مصطفىٰ، مطبعة السعادة، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.
- رسائل القاضي الفاضل دراسة تحليلية: د. محمد عبد الرحمن عطا الله، دار الحضارة، طنطا ٢٠٠٠م.
- سِقط الزند:أبو العلاء المعري، دار بيروت ودار صادر،بيروت١٣٧٦ه- ١٩٥٧م.
- سنن ابن ماجه (محمد بن يزيد القزويني): تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون.
- سنن الترمذي(الجامع الصحيح):(محمد بن عيسىٰ بن سوْرة) تحقيق:

محمد فؤاد عبد الباقي، طبع عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة، الثانية ١٣٨٨ه-١٩٦٨م.

- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: د.إحسان عباس، وزارة الإرشاد، الكويت ١٩٦٢م.
- شرح ديوان المتنبي: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان١٤٠٧ه-١٩٨٦م.
- شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة: د.عبد الكريم الأشتر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الثانية ١٤٠٣ه-١٩٨٣م.
- شعر عبْدة بن الطبيب، جمعه: د. يحيىٰ الجبوري، دار التربية للنشر، بغداد،١٣٩١ه-١٩٧١م.
- صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا لأبي العباس القلقشندي، طبع دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٣٤ه- ١٩١٦م.
- صحيح البخاري(الجامع الصحيح) تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، الأولىٰ١٤٠٠هـ.
- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، الأولىٰ ١٣٤٩ه- ١٩٣٠م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز:يحيىٰ بن حمزة العلوي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا،بيروت١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: أحمد أمين وزميله، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق، تحقيق: محمد محيىٰ

الدين عبد الحميد، دار الجيل، القاهرة، الخامسة١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- عيار الشعر: ابن طباطبا العلوي، تحقيق:د.عبد العزيز بن ناصر المانع، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- فن الشعر: د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٩٦م.
- في النقد الأدبي: د.عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت١٩٧٢م.
- القانون في ديوان الرسائل: علي بن منجب الصيرفي ت٥٤٢هـ، تحقيق: د. أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.
- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان لابن خاقان، تحقيق: د.حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، الأولىٰ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م
- الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي بالقاهرة، الثالثة، ١٤١٧ه-١٩٩٧م
- كتاب التعازي لأبي الحسن المدائني، تحقيق: ابتسام مرهون الصفار وبدري محمد فهد، النجف، العراق١٣٩١ه- ١٩٧١م.
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر:أبو هلال العسكري، تحقيق:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم،عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة١٣٧١هـ- ١٩٥٢م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق:د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٣م.
- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية العدد(٩) ٢٠٠٩م، (ذيل علىٰ رسائل موحدية، رسائل في تعازي رجال السلطة) د. أحمد العزاوي، جامعة ابن الطفيل،المغرب.
- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد(٥) ٢٠٠٥م، (ملحق برسائل الغرب الإسلامي، تتمة) د. أحمد عزاوي، جامعة ابن الطفيل،المغرب.

- محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة: د. صابر عبد الدايم، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٤م.
- المسند للإمام أحمد بن حنبل: تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة: الأولىٰ ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٨م.
- المُغرِب في حلىٰ المغرب: ابن سعيد الأندلسي، تحقيق: د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٤م.
- من صحائف النقد الأدبي: د. عبد الوارث عبد المنعم الحداد، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
- مواد البيان:علي بن خلف الكاتب، تحقيق: د.حسين عبد اللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طرابلس١٩٨٢م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب:الشيخ أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- نهج البلاغة: شرح/ أ. محمد عبده،الهيئة العامة لقصور الثقافة،القاهرة ٢٠٠٤م.